الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون–تيارت
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في ميدان اللغة والأدب العربي

تخصص: نقد حديث ومعاصر

فلسفة الفقر عند الرافعي

في كتابه " المساكين"

إشراف الأستاذ:

أ.د.مهيدي منصور

من إعداد الطالب:

بلقاسم شمس الدين

لجنـــة المنـــاقشـــــة

الإسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
د. كراش بخولة	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون تيارت	رئيسا
أ.د.مهيدي منصور	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون تيارت	مشرفا ومقررا
أ.د. أحمد بوزيان	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون تيارت	مناقشا

السنـــة الجـــامعيـــة: 2024/2023م– 1445/1444هـ

شكر وعرفان

بسم الله الرحمن الرحيم

نبدأ بشكر خير الشاكرين، نشكر"الله" عز وجل ونحمده إذ وفقنا وهدانا وتفضل علينا بالتوفيق والسداد في إخراج هذا العمل إلى النور فالحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافؤ مزيده، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أما بعد :

كلمة شكر وعرفان ملؤها الإحترام والاعتراف بالجميل إلى كل الأساتذة الذين هيئوا لنا سبل العمل وكانوا نعم الدليل وخير الناصحين ..

نتوجه بكل عبارات الشكر إلى الأستاذ الدكتور * مهيدي منصور * الذي كان مشرفا على هذا العمل وعلى ما تقدم به من توجيهات, وما سمح به من نقاشات واستفسارات، منذ بداية العمل حتى نهايته, وسهر على إتمام هذه المذكرة فبارك الله فيه وجعله ذخرا للجامعة الجزائرية ..

ولكل من ساعدنا في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد ..

إهـــداء

أهدي هذا العمل المتواضع لأول من علمني كيف أمسك القلم وأجره على الصفحات.

أبي ذلك الرجل الذي لا يجدر أن أصفه في كلمات قلائل ولا تسعه.

وإلى تلك التي أخرجتني من مستنقع الجهل والتيه وهي على سجادتها تدعو لي في ظلمات السحر.

أمي تلك العظيمة التي آمنت بي حين انصرف عني الجميع ....

إلى سندي ومتكئي في هذه الحياة

وليد أخي رمز الشجاعة الإقدام

وإلى أختاي رميساء وشيماء ومحمد عبد الباسط أخي الصغير..

وإلى كل أحبتي والأصدقاء والأعزاء وإلى أبي الثاني " خالي الكريم

وإلى أستاذي الفاضل: د. مهيدي منصور الذي لم يبخل علي لا بالقليل أوالكثير.

شمس الدين

مقدمة

مقدمة

لقد ظهر الإبداع بظهور الإنسان نفسه وقدمه من قدم الإنسان نفسه إذ، صاحبه النشاط النقدي الأولي تمثل في الذوق والتذوق، فتغير مفهوم النقد وتطور إلى يومنا هذا.

يعتبر مصطفى صادق الرافعي من عمالقة القرن العشرين كما وصفه الدكتور عبد العزيز المقالح، فهو من كبار المفكرين في ذلك القرن وساهمت أبحاثه وكتاباته في الإضافة إلى المكتبة العربية جزءا ليس باليسير، سواء في جانب النقد أو الفن أو الفكر، وكذا الجانب الديني، فقد تضلع في كل هاته المجالات فالرافعي كان موسوعيا يغترف من كل علم بطرف، على طريقة الأوائل، أمثال الجاحظ وابن المقفع وابن خلدون، وغيرهم ممن حذا حذوهم وسار على نهجهم، فاعتنق الكتب والمجلدات ولم يكتفي بالدراسة النظامية بل صنع لنفسه نظاما أخرجه سعة غرفته إلى العالم العربي ومن ذا الذي لا يعرف الرافعي إلا جاحد.

وبما قدمه الرافعي جعله يسجل على صفحات التاريخ بأنه صاحب قلم فذ قوي خاض معارك أدبية أسهمت في خلق إبداع فكري مما جعل الجيل القرن الماضي يحظى بموفور الثروة الأدبية التي انبثقت في مطلع القرن العشرين.

كان الجانب النقدي – عند الرافعي جانبا مستقلا لا يكاد يختلف عن أقرانه في ذلك الزمن، كان ناقدا حذقا حيث عرفت خلفياته الفكرية والفلسفية بتمسكه بالتراث العربي غير مسترخص له، كذلك

عُرف بممارسته للشعر وتذوقه له، فقد كان أكثر استبصارا به دلالة الشعر وكلماته وأساليبه لذلك تفنن في هذا كله.

ثم التفتنا إلى نزعته الإنسانية التي مارسها في كتابه المساكين حيث سلط الضوء على المهمش في المجتمع (الفقير) وعالجه معالجة الجراح لمريضه بتلك الدقة والحذر.

ومن ثم اتجهنا في بحثنا إلى موروثه الإسلامي الزاخر، ثم إلى إبداعه اللامتناهي في أعماله الفنية "كأوراق الورد" و"وحي القلم".

ومن بين الدراسات التي تناولت هذا الموضوع نذكر منها دراسة "مليكة صياد" في دراستها: **النقد الأدبي بين العقاد والرافعي"**. ودراسة قط السعيد وعز الدين عزوز دراستها الموسومة بـ:" **النقد الأدبي في كتاب تحت راية القرآن" لمصطفى صادق الرافعي**، وكتاب وليد عبد الماجد كساب :" **تأملات في كتابات الرافعي"**.

وعليه نطرح التساؤلات التالي:

- ماهي الخلفيات الفكرية والفلسفية التي أثرت في كتابات الرافعي؟
- ما أثر الموروث الأدبي والنقدي العربي والإسلامي على كتابات الرافعي؟
- ماهي فلسفة الفقر عند الرافعي؟

والمنهج المتبع في هذا البحث هو منهج (نقد – نقد) والمنهج الوصفي من أجل وصف الظاهرة الأدبية – النقدية من الناحية النظرية والتطبيقية.

وللحديث عن هذا الموضوع إتبعنا الخطة التالية، وتمثلت في:

مقدمة

مدخل

المبحث الأول: الفكر النقدي عند الرافعي

المبحث الثاني: الوعي المحافظ عند الرافعي

الفصل الأول: الروافد النقدية عند الرافعي

تمهيد

المبحث الأول: المنجز النقدي عند الرافعي

المبحث الثاني: الموروث العربي النقدي والأدبي

المبحث الثالث: الذوق السليم والرؤيا الأصيلة في الفكر النقدي لدى الرافعي

المبحث الرابع: الموروث الإسلامي وتشكل الوعي الثقافي عند الرافعي

المبحث الخامس: النزعة الإنسانية في كتابات الرافعي

الفصل الثاني:قراءة تحليلية في كتاب المساكين للرافعي

مدخل تطبيقي:

خاتمة

قائمة المصادر والمراجع

ومن أسباب إختيارنا لهذا الموضوع :

أولا: الأسباب الموضوعية: هو سعينا إلى أن نلتفت إلى الشق النقدي من إرثه الأدبي الذي مارسه ولا أقول أنني أتممت البحث ولخصت الكتاب كتلخيص ممتاز ولكن سرت على خطى ومسار البحث.

ثانيا: الأسباب الذاتية: حبنا لهذا الكتاب وكتاباته الرائعة.

إلا أننا واجهنا بعض الصعوبات ومنها نذكر:

نقص المادة المعرفية وتهميش هذا الكاتب في الساحة العربية (الأدبية والنقدية) خاصة، ذلك أنه لم يشتغل على كتاباته إلا قلة من الدارسين.

ونتوجه بالشكر إلى الأستاذ المشرف مهيدي منصور الذي ساعدنا في إنجاز هذه المذكرة.

2024/06/23

مدخل:

الفكر النقدي والوعي المحافظ في كتابات مصطفى صادق الرافعي

تعتبر الخلفيات الفكرية والفلسفية في المنجز النقدي عند الرافعي خلفيات إسلامية تراثية تحتوي على إشارات فكرية وتربوية يندر أن نجدها في الكتابات المعاصرة بهذا العمق وهذه الكثافة وهذا الأسلوب.

أيضا نرى أن الرافعي اشتغل بالتفكر في الطبيعة والتأمل في آلاء الله المبثوثة في الكون، فنلمح قدرته الخارقة على النفاذ إلى أعماق سحيقة من التأملات الفلسفية.[1]

المبحث الأول: الفكر النقدي عند الرافعي

وكان أول ما إبتدأ به الرافعي هو نقد الشعر كونه كان شاعرا في بداية مشواره الأدبي، وكما يقول عبد العزيز المقالح متحدثا عن الرافعي: "للشاعر في ممارسته للنقد رأي يتلخص في مجموعة من الحقائق منها: حرصه على توضيح مذهبه الشعري إن كان له مذهب في الشعر، والتبشير بهذا المذهب والتمكين له من الذيوع والانتشار ثم أن يحقق –أي الشاعر الناقد– بالنقد ما لم يحققه بالإبداع".[2]

ولعل المقالح أراد لنا أن ندرك، الشاعر يكون أكثر استبصارا وتذوقا للشعر وإدراكا لجمالياته التي تنطوي عليها القصيدة.

[1] سعد بن زيد آل محمود – العلماء والدعاة – مواقع مداد الإسلامي. *https://midad.com* اليوم 2024/04/20، الساعة: 15/15

[2] عبد العزيز المقالح، عمالقة عند مطلع القرن العشرين، منشورات دار الآداب، بيروت، 1988، ص 179.

وأكثر معاشرة للغة وأساليب التعبير وأكثر اهتماما بمعاني الكلمات ودلالتها. والحق أن هذه هي الأسس التي يقوم عليها فهم الشعر وتذوقه. فالرافعي كان ناقدا متميزا غير متحيز وأكثر موضوعية بعيدا عن الذاتية وكذلك بعيدا عن النظريات والمقولات، الإيديولوجية والسوسيولوجية، التي أضعفت النقد الأدبي واستبدلت به نقدا سياسيا واجتماعيا وحدد وظيفة النص الأدبي وفي المقابل أظهر الأدبي عجزا تاما في تفسير أبعاده الجمالية والنظر إليه عضويا في وحدته العضوية وإرتباطه مع البيئة والزمن.[1]

وفي عشرينات القرن الماضي أخذ النقد طابعا جديا وجديدا في آن واحد، وكان الرافعي كما أَسْلفنا صاحب موهبة شعرية، وكان من الذين مارسوا النقد وحملوا مهموم وإشكالات القصيدة العربية وأساليب التعبير المحدثة بين قديم وجديد.

وكان الرافعي يمارس النقد بمنهجه "اللامنهجي" معتزا بذلك وفخورا به، حيث كان يرى أنه لم يقع أسيرا للنظريات والقواعد النقدية ساعتئذ وقد ذكر ذلك في رسالة له إلى صديقه (محمود أبوريه) يتحدث إليه فيها أن أحد المحامين يتمنى لو أن الرافعي قد اتجه إلا النقد الأدبي يقول فيها:" المحامي الذي تمنى أن أفرغ لنقد أصاب الحقيقة"، فإن كل ما أتمناه من زمن بعيد هو أن أتفرغ لمقالات في النقد نحو سنتين أو ثلاث تهدم العصر كله من جميع نواحيه الضعيفة وتبني عليه أدبا جديدا، فإن هذا العمل ينشؤ جيلا قويا جد ويقضي على التدجيل الصحافي المتفشي الآن ويحدث في الأدب واللغة نهضة تنبعث بالحياة ولكن هذا

[1] عبد العزيز المقالح، المرجع السابق، ص180.

العمل لا يمكن إلا إذا تركت الوظيفة وتفرغت له وحده- ويظهر لي أن الوقت الذي نحن فيه غير صالح لمثل هذه الثورة- فالبلاغ مثلا يرفض هدم زكي مبارك وللمقتطف يرفض هدم العقاد وقس على ذلك".[1]

وقد كان يرى أن الصحافة هي من تصنف وتؤطر المقالات والمعارف على حسب الأشخاص فهو يرى أن النقد مقيد ما دام أولئك يسيرون التحرير في تلك الصحف. وقد قال بالحرف الواحد في رسائله الإدارية :" لا نسى الصحافة إنما هي في يد الذين ذكرتهم وإن سئل طه حسين أو هيكل أو العقاد لا يمكن أن يصيفونا وما دامت الصحافة في أيديهم فهم يكتبون ما يشاؤون حقا وباطلاً".[2]

وتبين لرافعي أنه مادامت السياسة على علاقة بالأدب كله شعرا ونثرا فلن يتحقق النقد بموضوعية تامة.

وكان أول ما عُرف للرافعي في النقد مقالة كتبها في" الثريا" عن شعراء العصر في سنة 1905. عُرف بنقده اللاذع الصريح البعيد عن المجاملة والمداهنة فكان لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب وكل هذا كان بسبب غيرته على العربية والدين فكان لا يرى فيهما منفعة إلا معا، حيث يتماشان معا، وكان يؤمن أنشد الإيمان أنه ما من دسسية خبيثة للدين إلا وجدت مثلها اللغة.[3]

كما قال:" إن الأمة لا تحيا إذا ماتت لغتها، ولا تموت لغة أمة حية"، ونتأمل في مطلع كتابه تحت راية القرآن: "... إنما أعمل على إسقاط فكرة خطرة إذا قامت هي اليوم بفلان الذي تعرفه، فقد تكون غدا

[1] المرجع نفسه، ص219.

[2] عبد العزيز المقالح، المرجع السابق، ص220.

[3] سعيد العريان، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.س.ن، ص148.

فيمن لا نعرفه، ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء، لا جهلنا من نجهله بلطفه، ولا معرفنا من نعرفه نبالغ فيه ... فإن كان في أسلوبنا من الشدة أو العنف، أو القول المؤلم أو التهكم، فما ذلك أردنا ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل، فما به زجر الأول بل عظة الثاني...".[1]

وقف الرافعي في صف المحافظين، يتصدى على كل محاولة في التجديد التي يتخللها دسائس تحاول ضرب التراث والإرث الإسلامي تحت مسمى التجديد وإتهامهم مع أنهم مقزمين وغير مطلعين على الثروة العربية التي خلفها سلف الأدب والنقد وأن هذا هو سبب انبهارهم بهم بالحداثة أو التيار التجديدي الممتلئ بزخرف القول والذي لم يضف أي جديد بل سرق من القديم وعدل فيه ووضعه في طبق جاهز ونسبه إلى نفسه.

المبحث الثاني: الوعي المحافظ عند الرافعي

ويرى الرافعي أنه لا جديد إلا مع القديم، أي الجديد الذي لا يبنى على القديم أو ذا مرجعية قديمة فهو بالنسبة له بتجديد بناء إنما هو هدام. بأكبر معنى للكلمة فهو يضرب الهوية العربية والإسلامية معا.

ولا يرفض التحديد رفضا قطعيا بل كان من المؤيدين الأوائل النهضة الشرق والعربي لكن ليس على حساب تراثهم وهويتهم المتجذرة منذ قرون.

[1] مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، دار المصابرة، مصر، 2014، ص03.

وفي هذا يقول:" لست كنت أقول أن نهضة الشرق العربي لا أساس لها، فإن لها أساسا من حمية الشباب، وعلم المتعلمين، ومن جهل أوروبا الذي كشفته الحرب ولكن هذا كله على قوته وكفايته في بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى واهتياج العواطف .... ولا يكفي لأن يكون أساسا وطيدا".

يقوم عليه بناء عدة قرون من الحضارة الشرقية العالية، بل على ما أسرعه إلا القادم والنقص، لو هدمته الأساليب اللينة من الدهاء الأوروبي على اختلافها... إذا قدر لأوروبا أن تفوز بأسلوبها الجديد أسلوب استعباد الشرق..."[1]، فالرافعي كان يعمل بمبدأ الرفض التام للثقافة الغربية ورجالاتها واعتبرها العدو الحضاري العالم العربي الإسلامي فهي بمثابة السوسة الداخلية التي تنغل الهوية العربية تدريجيا وذلك بالتوسع في شتى المجالات إلى أن تطمسها كليا وذلك برفض التبعية على الغرب وكسر أفق الانبهار القادم من هناك وفيها أن الدواء لنهوض الأمة العربية إلا إن تمسكت بالركنان الأساسيان الخالدان على مر العصور الدين الإسلامي واللغة العربية التي هي لغة القرآن لغة هذا الدين".

وها هو الرافعي يعيب على أنصار المذهب الجديد خوائهم الثقافي بأدهم وموروثهم العربي، ولو أنهم أخذوا منه الحظ الموفور وتشبعوا به واستقوا منه رصيدهم لبزغوا كما بزغ الأولون من أجدادهم وذاع صيتهم في أقطار الأرض مشارقها ومغاربها فهو يرى هذا نقص والضعف. لأن اللغة مقدسة ولا يجدر إدخال أو زيادة أشياء قصد تصليحها وإعادة تقريرها تحويلها تحت مسمى التجديد.

[1] مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، مراجعة درويش الجويدي، ج2، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ص 336.

وقد بين لنا قيمة هذا الموروث ووزنه حينما قال:" لا ينقصنا من اللغة شيء وهي على ما هي من أحكام الأوضاع والتراكيب والإتساع للمفردات .. ولكن ينقص هذه اللغة رجال يعملون ويحسنون إذا عملوا ويعرفون كيف يأتي عملهم على الإحسان".[1]

وهو يري أن الأمة لكي تحافظ على موروثها العربي الإسلامي ينبغي أن يكون لها أعلام كبار بتصدون لكل غزو ثقافي ويمحصون النصوص والكتب القادمة من الغرب المندرجة بها رسائل مبطنة لضرب الدين واللغة والهوية معنا.

إذ يرى بداية كل ذلك مع المستشرقين الذين تصرفوا في الثقافة الشرقية كيف ما شاؤوا واستهلكها النشيء واستوعبوها وأرادو تجسيدها وتطبيقها في الواقع المعاش وفي مجالات الحياة العلمية والعملية.

لقد التمسنا في نقد الرافعي فلسفة عجيبة، تقف بين الرزانة والتعقل تارة والتهكم والتقزيم تارة أخرى وكلاهما صالحين في الوقت والمكان المناسب.

لعب الرافعي دور الطبيب ليتصدى للوباء الذي قَدم به خصومه من أفكار مسمومة ونلتمس كل ذلك في قوله:" وقد كان أمره وأمر أصحابه كما يكون من الوباء يمر بالدنيا مرة، فيصيب منها ولكنه يترك لي أبدي أطبائها الفصل الواقي منه أبد الدهر".[2]

[1] مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ص29.

[2] مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المصدر السابق، ص 10.

استصغر الرافعي لحجم الوباء وأنه فائت لا محالة ويبقى نقده وتمحيصه وكشف حقيقته للأجيال لكي لتعرف على حقيقة التجديد الذي يسعى للقطيعة مع التراث والعربية، ووصف النقد اللاذع بالمصل الذي يبقى رغم زوال الداء.

ويؤكد لنا أيضا أنه ما من كتاب طبع للمحدثين لم يقف عليه، وما أصاب من فائدة في كتبهم إلا التي أثنى عليها نظرائهم المنحطين في المستوى والذين لم يرتقوا إلا منزلة النقد والتمحيص وتمييز الرديء من الجيد بممارسة عقلية على العمل الأدبي.

وقد قال أحدى رسائله لصديقه أبوريه من كيفية النقد:" وليس النقد أن تأتي بألفاظ في مدح الكاتب والكتاب بل أن تبدأ ببيان قيمة الكتاب وما فيه من صواب وخطأ ثم بعد ذلك تصف الكاتب بما ينتجه البحث حتى لا ينخدع القراء وحتى يكونوا على بينة من إستحقاق صاحب الكتاب لما يصفه به الناقد ذماً أو مدحاً ...إلخ".[1]

فقضية النقد عنده تكمن عند الأدب والأديب معا، فلا طالما إستثارته أساليب التعبير الجديدة في الأدب العربي الحديث، وما اتسمت به تلك البنى من مخالفات للمألوف ومن غموض محيرًا عكس الأولين السلف الذين علوا باللغة والأدب إلا أسمى مراتبها، أما المتأخرون فأزاحوها عن موتها بالنزول بها إلى

[1] محمود أبورية، رسائل الرافعي، كيف يكون النقد، ص 222.

الحضيض بإستخدام الألفاظ المبتذلة منها، ومحاولة البعض منهم إدراج العامية فيها وخلطها بالفصحى وذلك لعجز المحدثين عن استعمال اللغة القوية التي تؤرق الجيل المنبهر بالجديد والحداثة.[1]

يصف الرافعي في فصل آخر من فصول كتابه" المعركة تحت راية القرآن" اللغة على أنها مظهر من مظاهر التاريخ على حد قوله وان التاريخ هو هوية الأمة إذ لا وجود لأمة بدون تاريخ وان زوال الأمم سبقه زوال تاريخها وإندثارها وزوال لغتها ويضرب المثال على ذلك بالفراعنة إذ يقول:" لو بقي للمصريين شيء متميز من نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستعملة من اللغة الهيروغليفية"[2].

فهو يقيس الأخير بالمتقدم فوجدناه يحرص أشد الحرص على نشأة اللغة ويجسد تخوفه الشديد في الفقرة التالية:" إنما اللغة مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الأمة، والأمة تكاد تكون صفة لغتها لأنها حاجتها الطبيعية التي لا تنفك عنها ولا قوام لها، فكيفما قلبت أمر اللغة بحيث إتصالها بتاريخ الأمة وإتصال الأمة وجدتها الصفة الثابتة ولا تزول إلا بزوال الجنسية وإنسلاخ الأمة من تاريخها وإشتمالها جلدة أمة أخرى"[3].

فهو يراها حربا على الأمة ومقدساتها بأكملها وليست للغة وحدها فهو يرى القرآن ليس كتابا يجمع بين دفتيه ما يجمعه فحسب بل هو جنسية لغوية على حد قوله، تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما يتأذن الله بإنقراض الخلق وطي هذا البسيط

[1] ينظر: مقدمة وحي القلم، ص17.

[2] مصطفى صادق الرافعي ، تحت راية القرآن، ص 39.

[3] مصطفى صادق الرافعي ، تحت راية القرآن، المرجع السابق، ص 39.

وتماسك هذه الأمة التي ليست كغيرها من الأمم سببه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم وإلا نكون على لغتنا وديننا كما كان الترك والديلم وغيرهم من أصناف الحمراء التي إجتاحت العرب منذ الدولة العباسية وتوسعت وتغلغلت بينهم حتى جعلت بأسهم في لغتهم وذلك لعلة المباينة في الجنسية اللغوية.

فهو يسعى جاهدا للإصلاح ما استطاع خوفا من أن يلبس تاريخنا ديباجا وزيا آخر من الطراز وكلاما آخر كما يقول:" ولا نترك أمتنا على سوم". بين اللغات الأجنبية تتأرجح حتى نطمس كلية"[1].

مما قد وجدنا في منجزه النقدي وهو نقده للأسلوب الجاحظ فقد رأى مصطفى الجاحظ كثير التلاعب بالألفاظ لتزيين أسلوبه وأحسن ما السلامة ما يكنيه هو تحت تلاعب فيه، فالاختيار بالنسبية له يجعل أكثر عباراته كأنها مجرد ألفاظ فقط، وهذا ما يسقطها إسقاطا شديدا في هذا الزمن الذين في يريدون فيه المعنى قبل كل شيء ويطعنون على القديم بأنه تلاعب وزينة، ولا محل لهما هذا العصر.[2]

لقد تبين للرافعي أن هذا التلاعب حين يكون جاريا في كتب الجاحظ لا يظهر، لأن الكتب إنما هي مواضيع فينشغل الإنسان بالموضوع متنائيا من هذه الزينة ولا أنها مقصودة لذاتها، فهي تمر أثناء الكلام حين يكون فكر القارئ منصرفا إلى الموضوع نفسه إذا أنه لا يستشعر ذلك بسبب شد الموضوع له والإنغماس فيه.

---

[1] تحت راية القرآن، ص40-41.

[2] محمود أبوريه: رسائل الرافعي، ص115. مقال من كلام من مختارات الجاحظ .

وكان قد خاطبه صديقه أبارية في رسالة (كلام من مختارات الجاحظ) لما إختار بعض مختاراته فعقب الرافعي على القول الذي أسلفنا التعليق عليه فقال له لا فائدة مع هذه المختارات لأنه لا فائدة منها لأن الناس لا يطلبون الألفاظ لأنها ألفاظ بل لأنها تكسو معاني محبوبة عندهم مرغوباً فيها وفي قرأتها"[1].

فالعلة هي ظهور الكلام عنده فارغا وحسب، كأنه ألفاظ مجموعة متراصة مزدانة لا لشيء إلا للتلاعب والصيغ وعليه فهو يبين لأباريه صديقه أن معظم القراء (يميلون كل الميل إلى المعاني الروائية ومعاني الحب والجمال والفصول الاجتماعية والفلسفية ونحوها) وهذا كله بعيدا من الجاحظ ومختاراته.

فمقصد الرافعي هنا هو تسليط الضوء على المعاني والمضامين أكثر منها على الأساليب والمفردات المزخرفة التي تدبج النص ويتخلله فراغ معنى والخلوة من رسائل مفيدة وهادفة يسعى إليها الباث إتجاه المتلقي.[2]

كيف تصور الرافعي قصيدة النثر؟

مما ظهر له في التحديث الأدبي وضرورته إن يتخذ من القديم أساسا ومنه ينطلقون إلى الجديد لا يكرره ولا يقلده، جديد يفرض التكرار الأدبي والإستمرار فيه على طول الخط، فهو مقبرة التغيير ويسلب من الزمن ما كل محاولات الإبداع الجديدة كانت عفوية أو مختصرة.

[1] المصدر نفسه، ص116.

[2] عبد العزيز المقالح، المرجع السابق، ص 165.

والرافعي من أهم المجتهدين في عصره في مجال الأدب، حيث إزدهر في عصره تحول وتغيير منه ومن نظرائه في ذلك العصر، عصر المحأولات الجريئة والمندفعة إلى المزج بين التراث والمعاصرة وفق شروط وآليات دون خوف من التقدم وبعيدا طي التراث في صفحات التاريخ المنسية.

ويعتبر كتابه " تاريخ آداب العرب" أطروحة علمية قيمة أهلته للإضافة وإكتشاف الإمكانيات البيانية في النشر العربي سواءا أدرك ذلك أم جاء بعفوية تومئ لذلك المقصد.[1]

وكأننا نلتمس من خلال هذا المدخل بحثه عن الشعر في النثر، وأن الخيال الإبداعي ليس حصرا على الشعر وحده إذ يمكن ممارسته في النشر وإيصال مما يمكن إيصاله، والنشر يختلف مع الشعر في الوزن ولكنه ليي نقيضا له في الشاعرية. أيضا بشير إلى أن التقليد والتعصب له هو السبب عن محو وإغفال الطاقة النثر الشعرية.

وقد لعب على وتر شاعرية النثر في كثير من أعماله الجمالية وتتبع النماذج العاطفية الشعرية في النثر العربي، وهاهو يعرض في مدخل أوراق الورد الموسوم بـ "الصور من التاريخ "—« قد انفرد وحده بالنسيب والغزل وأوصاف الجمال، وليس لنا كتاب واحد في رسائل الحب ولا نعرف أحدا من البلغاء كتب فيها».

[1] مصطفى صادق الرافعي، أوراق الورد، ص16.

ولعل هذا راجع إلى أن تلك الطريقة استغل بها الشعر في الصدر الأول فقلد الباقون وأخذوا في مدرجتهم من بعد. وكأن هذا الباب عندهم مما يرون للشعرية – إختصاصا، فهو سبيله دون الكتابة والخطابة ».[1]

لقد كان أديبنا الرافعي على سعة من المعرفة والعلم. وكانت أعماله مقصورة على الشعر كما أسلفنا القول وبعد ذلك إتجه نحو المنشور، وكان دائما ما ينتصر للفصحى ويدحض العامية التي كانت سببا في فساد اللغة في العديد من الأمصار، وذكر ذلك مستدلا في كتابه " تاريخ آداب العرب" بإبن خلدون قائلا: "والبعد عن اللسان–كما قال إبن خلدون–إنما هو مخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لغته من ذلك اللسان الأصلي أبعد، لان الملكة إنما تحصل بالتعليم...وإعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق.

أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل، فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة".[2]

فقد مر على نقطة لم نرض أن نتجاوزها فقد مارس النقد في كتابه هذا رجوعا إلى العصور الأولى وتفشي العامية ساعتئذ، وكيف إبتدأ ظهورها فإنتشارها في الأمصار العربية وتوسعها على الألسنة وإحتلت مكان الفصحى.

[1] نفسه، ص16.

[2] مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، لبنان، 2000، ص219.

وذكر عينة الجفاء الظاهر في عامية تونس والجزائر والمغرب أو كما سماها هو" مراكش" حتى لتحسبها مختلفة عن بعض اللغات الأعجمية لما فيها من الغلظة والصلابة كذا ضعف اللسان العربي الذي يحتمل حمل الأحرف بسبب رخاوته لا يحتمل الكلمات والأحرف الكثيرة.

فإشتغل منذ بزوغ شمس كتابه ولقت رواجا وقبولا في المجتمع العربي سواءا أمن منثور أو منظوم، على العربية وشؤونها وإشكالاتها البينية والمضمرة وحاول جاهدا التمحيص وإيصال الرسالة التي كان محتواها أن العربية الفصحى راسخة برسوخ الدين نفسه ولا عدول لذلك إلا بدسيسة خبيثة معهما معا، فمارس النقد بكل تجلياته في ذلك العصر الذي كان عصرا غير عادي إذ ظهرت فيه قامات فكرية من الأدب والقانون وعلم الاجتماع والفلسفة وغيرها، ومحل صراع فكري في الساحة العربية وفي مصر خاصة إلا أن هذا الصراع كان مثمرا، فقد خلق الإبداع الفكري وبزوغ النوابغ وكأنه أيقظ النيام المتهالكين فقط، فكانت نتائجه صانعة للفكر والإبداع وكذا تنشيط العقل العربي الذي إعتاد استقبال كل شيء واستهلاكه بحلو ومره فعرف بقرن النهضة.

مما جعل .... كاتبنا الجليل كما يكنيه صديقه ينتقل من مرحلة الإبداع إلى منزلة النقد والتمحيص فتحركت فيه المكنونات الراسبة وخرجت في قوالب فكرية مميزة ونادرا إذ كل قارئ يميل إلى الفكر والفلسفة والتحليل العميق إلا وجدته له يشير إلى الرافعي في قائمة المفكرين والفلاسفة، لأن نظرته وتحليله كان مختلفا عما جرت به العادة واقتضته القواعد المألوفة عند المحليلين نظرائه، فهو عمل كسر ما لم يسلم به أولئك

وضع منهاجا خاصا به، وتقبل القراء بكل طبقاتهم من قارئ مثالي إلى قارئ ضمني فالقارئ البسيط. فكل منهم التمس الموضوعية والتعمق في التحليل والسمو بالفكرة وربطها بالطبيعة والإنسانية أو بالأحرى ملامستها الواقع المعاش. وإليك رؤيته لكل من الذوق الأدبي والحكم الأدبي والنقد الأدبي وتفسيرهم:

«الذوق الأدبي في شيء إنما هو عن فهمه، والحكم الأدبي على شيء، هو أثر الذوق فيه، والنقد الأدبي إنما هو الذرة والحكم والفهم جميعا».[1] فهو يرى النقر على غير مايراه اغلب النقاد والمفكرين .

ويرى أيضا رؤية مختلفة بالنسبة للكتابة والكاتب والقاص والمحقق الذي يشتغل على الكتابة التاريخية، والفرق بينهما وكيف يمكن له الاستقاء من التاريخ ومن نفسه قائلاً : « ..إن الكاتب يرى التاريخ فنا لا علما لأنه كاتب لا مؤرخ: وقاص لا محقق فيتولاه بالخيال لا بالمحافظة، ويأخذ من الروح ما لا يأخذه من الفكرة، وبذلك ينتهي في رأيه إلى أن الأدلة التاريخية إنما هي منازع تختلف للعواطف عندها، فأنكر ماشئت فلك ذلك لأن لك عاطفة وأثبت ما شئت لأن لك عاطفة».[2]

يصف من إشتغل على كتابة التاريخ في أعلى مراتب الحرية القرية هو حر فيما ما يكتب لأنه يرى ذلك فنا ليس كالمؤرخ المقيد بشروط أو المحقق أشد حرصا في نقل الأحداث، إذ يتصرف مع التاريخ كأنه فن ويغترف الحقائق من الروح، أي ما قليه عليه أحد فينتقص الحقائق بحدسه وغالبا ما تكون نفسها مع الحقائق أو أقرب إلى ذلك.

[1] مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ص09.

[2] مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ص09.

وكأني بالرافعي أراد القول أن الكاتب يستشف الحقيقة بخياله ومن روحه، والإستشفاف غالبا ما يكون صوابا.

فطالما كان تحليل مصطفى مختلفا ونقده في صفة جديدة وكأنه بريد القول أن للأمة العربية أن تبوب وتمنهج لنقد عربي معاصر جديد يستقى من الأولين ويرتكز على أسسهم دون تقليد أعمى بل تعايشا مع أدب اليوم. وممارسة النقد في صورة جلية ذات إنتاج محلي شرقي عربي تخلصا من التبعية الغربية التي تتصرف الإرث الشرقي وتدس له الدسائس ونحي نستهلك كل ذلك، لم يقلها بصريح العبارة لكن منجزه النقدي ذلك.

الفصل الأول:

الروافد النقدية في كتابات الرافعي

تمهيد:

المبحث الأول: المنجز النقدي عند الرافعي

المبحث الثاني: الموروث العربي النقدي والأدبي

المبحث الثالث: الذوق السليم والرؤيا الأصيلة في الفكر النقدي لدى الرافعي

المبحث الرابع: الموروث الإسلامي وتشكل الوعي الثقافي عند الرافعي

المبحث الخامس: النزعة الإنسانية في كتابات الرافعي

تمهيد

من المعلوم أن النقد الأدبي انتقل من مسألة الذوق وكشف القبح والجمال والرديء والجيد في الأعمال الأدبية إلى المنهجية العلمية والموضوعية فأصبح علما مستقلاً بذاته، ونقد اليوم ليس كنقد الأمس وما كان سائدا قبل القرن 19م لا يكمن إدراجه في مجال النقد لأن الأصل فيه أنه مبني على الذوق فحسب.

المبحث الأول: المنجز النقدي عند الرافعي

وقد عرف الرافعي في نقده أنه صار على نهج الأولين في ممارسته نقده وكانت روافده النقدية مأخوذة عن السلف كالجاحظ وابن المقفع في "كليلة ودمنة" حيث استخدم فيها الكاتب شخصيات حيوانية رئيسية على لسان الحيوانات ولكنها ترمز إلى شخصيات بشرية ومرر من خلالها أرائه النقدية، ونرى الرافعي قد عمد إلى أخذ هذا الأسلوب في نقده وقد بين ذلك "محمد سعيد العريان" قائلاً:" ..وكليلة ودمنة كتاب في العربية نسيج وحده، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ أن كان " ابن المقفع إلا مصطفى صادق الرافعي"، وكان أول هذه المحاكاة إتفاقا ومصادقة في مقال من مقالات الرافعي في "طه حسين"، إذ أراد أن يتهكم بصاحبه[1]، على أسلوب جديد فبعث "كليلة ودمنة" ليقول على لسانهما كلاما من كلامه ورأيا من رأيه، فشبه طه حسين بالسمكة الصغيرة التي أصيبت بالجشع

[1] محمد سعيد العريان، حياه الرافعي، ص 165

(دمنة) وقررت الخروج من مكانها الصغير للإبحار في المحيط الواسع، مما زاد غرورها وطمعها في الحصول على كل شيء، لكن من سوء حظها أنها وقعت في شبكة الصياد فقالت مخاطبة الشبكة: "دعيني فو الله ما قلت إن المحيط ميراث أجدادي ولا البحر ميراث أعمامي، ولا النهر ميراث أبي، قال كليلة : فمثل من هذا يا دمنة؟ قال مثل طه حسين حين تراجع كتابه في كتابه لمدير الجامعة[1]، نسج الحكاية بحبكة لم يسبقه إليها كاتب متهكما بطه حسين الشعر الجاهلي حيت تراجع كتابه في الشعر الجاهلي مبررا ذلك أن لم يقصد الإطاحة بالمقدسات بل إيقاظ العقل العربي وتنشيطه.

المبحث الثاني: الموروث العربي الأدبي والنقدي وأثرهما في كتابات الرافعي

ومما يعرف عن الرافعي أنه كان ناقدا على طريقة السلف وظهر ذلك في كثير من مواطن النقد لديه، ولعل أبرزها نقده للعقاد في كتابه على السفود، فقد عمم الأحكام والنتائج التي وصل إليها وهذا المنهج إتخذه القدامى وكان الشعراء القدامى يتبعون هذه الطريقة، إذ كانوا ينقلون العمل الفني بمجرد سماع مطلع القصيدة، أو الإطلاع على بيت أو إثنين حسبه أنه قد صنف القصيدة أو العمل الفني كاملاً.

ووصف الرافعي ونقده له ولأعماله على أنها مبتذلة وجلها مسروقة وأنه جاهل لقواعد العربية وأكثر ما دفع لقول كل ذلك هو إكتشافه لسرقة البيت الشعري الأمير الشعراء شوقي[2] حيث قال: " ... وهذا

[1] مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ص 176.

[2] ينظر: مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، جامعة الرباط، مج02، العدد12.

البيت سرقه العقاد من شوقي، ومع أن طبعي أنا لا يسيغ مثل هذه التشبيهات، ويراها كلها فسادا في الذوق، فإني أرى في بيت شوقي دقة غفل عنها العقاد، لأنه جاهل بالعربية، ليست لديه قريحة بيانية، فما في كتابه ولا شعره إلا الخيط ولبط".[1]

فنراه قد عمم على أشعار العقاد كلها وإتهم شخصه بأنه لص، وكذلك ينقد بيته الذي يقول فيه :

ويسعى إليها الشاربون*** يجف به عشب أثبت وأمواه

واصفا أنه من أبرد ما جاء به شاعر عامي ساقط، هل يهتم بالعشب الأثبت والأمواه الأحماء يحلم بالبرسيم ونحوه، أومن فيه روح حمار.[2]

وكل من تابع سيرة الرافعي الذاتية والأدبية يعرف أن الرافعي كان ميالاً للتيار الرومانسي وتعنى بالطبيعة في أشعاره بل حتى في أعماله النثرية، كأوراق الورد، رسائل الأحزان وحديث القمر وغيرها من الأعمال القصصية، بينما هاجم العقاد حين ذكر العشب والأمواه ووصفه بالحمار يحلم بالبرسيم ونحوه وهذا ما عرف في القدامي كالفرزدق جرير وطريقة هجائهما بسخرية وأيضا الجاحظ في طرائقه القصصية في كتاب "البخلاء" تهكما، وتلك هي الطريقة السائدة آنذاك، عند الجاحظ وابن المقفع وغيرهم، وبما أنه

[1] مصطفى الرافعي، على السفود، ص 126 – 127.

[2] على السفود، المصدر السابق، ص 60.

مصطفى كان متشبعا بتلك الثقافة السائدة في ذلك العصر، فوجدناه يمشي في نفس الرواق الذي انتهجوه وبنفس الخطوات وتمرير رسائله بسخرية واستهزاء وتهكم في الكثير من الأحيان.

أيضا نلاحظ في طريقة نقده نهج الأولين كإبن قتيبة مثلاً حين قسم الشعر إلى أربعة أضرب، كان قد اختار بعض الأبيات للتوضيح والإشارة جودة اللفظ والمعنى وحكم عموما أيضا ظهر ذلك في نقد قدامة ابن جعفر للشعر في كتابه "نقد الشعر" كان يتخير أبياتا فقط، من هنا يتبن لنا أن الرافعي كان يمارس نفس طريقة النقد والتحليل والحكم وتفسيره لكل على نهج الأوائل، والحق أننا نلتمس في أسلوبه قوة وبلاغة ولغة مها كاللغة الأولى على أصلها بمصطلحاتها وتراكيبها، وكما أنه قد انتصر لذلك الأولى على كثير من المواطن ونبذه للعامية والركاكة في الأسلوب والنزول به وهذا ما تطرق إليه أيضا الجاحظ في كتابه " الحيوان " يقول : "إن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون مادمت في المعاني التي هي عبارتها والمادة فيها، على أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود التكليف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة ..... وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل".[1]

استدل هذا القول في كتابه "المعركة" حينما كان مدافعا على الفصحى عند ظهور طائفة تنتصر للعامية والسلاسة والنزول باللغة بحجة إفهام العوام وكل طبقات القراء، وجدنا ذلك في فصل " تمصير

[1] الجاحظ، كتاب الحيوان، ج1، د.د.ن، القاهرة،1965، ص 17.

اللغة" مما يؤكد لنا أن تشبثه بمقاليد الأولية ومعالجته لقضايا عصره على طريقتهم كما أسلفنا وتطعيم نقد، بأقوالهم وتحليلهم وهذا يزيد قوة التأكيد على ذلك.[1]

وهذا وجه آخر يبين لنا الوجه الثاني في النقد عند مصطفى الرافعي نقف عنده لرؤية الموضوع من زاويتين يكمل كل واحدة منها الأخرى وحتى لا يذهب جهد المفكر الكبير أدراج الرياح بموضوعية مستقلة فرغم إلتحامه الشديد بالأدب العربي القديم منذ نشأته إلا أنه لا يلغ جهده البليغ في الحس النقدي والإبداعي معا فالإطلاع على الآداب القديمة والإلمام بنواحيها لا ينبت مثقفا ومفكرا ذا وزن كالرافعي فقد كون نفسه بالدأب على البحث والقراءة المستمرة والكتابة وقد تجلى ذلك في أعماله الأدبية من شعر ونثر ومقالات صحفية.[2] وقد قال عنه الزيات :"بلغ الرافعي بالعربية وآدابها حد الإجتهاد والراي فكان يقف في التعليل والإستنباط من ثقافتها ورواتها موقف الند وكان يتحطم أحيانا فيقف منه موقف الإستاذ".[3]

والحق أنه أستاذ بكل ماتحمله الكلمة من معنى فبراعته في الموازنة والمؤاخاة بين القديم والجديد وأسلوب التهكم تارة والنقد اللاذع الموضوعي تارة أخرى، كمن ينتقل في العمل المسرحي على خيط رفيع من الكوميديا إلى الدراما في العمل نفسه لا يتفطن إليه المشاهد كما فعل الرافعي ماشيا على طرف

[1] صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ص 48.

[2] ينظر: مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، جامعة الرباط، مج الثاني، ع 12.

[3] الزيات أحمد حسن، مصطفى الرافعي مات الرجل العظيم، مجلة الرسالة، ع 254، 1938، ص02.

الجسر متنقلا إلى طرفه المقابل وهولا يزال على نفس الجسر النقدي، فالأستاذة التي وصفه بها الزيات كانت ظاهرة بينة في منجزه النقدي المشبعة بفلسفة مختلفة لم يماثلها أحد من نظرائه.

وهاهو"علي حب الله"متحدا عن مصطفى قائلا:" إن مصطفى صادق الرافعي آخى بين أساليب كل من الجاحظ وإبن المقفع والقاضي الفاضل وغيرهم من أئمة النثر كل ذلك في غير كتابه من وحي القلم المتضمن لرسائله الصحفية والتي تمثل تطورا نحو الجديد في نثر الرافعي من دون أن يتخلى عن موقعه في الدفاع عن أساليب القدامى والحط من قدر الأساليب الحديثة المتأثرة بالآداب الأوروبية".[1]

أكد "علي حب الله" إختلاف ألوان النقد عنده وكيفية التحكم في ذلك عنده وكيفية التحكم في ذلك بإحكام دون التخلي عن مكانه وهذا إن دال فإنما يدل علا نبوغ في فكره وكفاءته العالية في كل ممارساتها الأدبية والنقدية والاعتدال والموازنة دون الميل لا إلى هذا ولا إلى ذاك.

مما تطرق إليه الرافعي ايضا في مقالاته، موضوع السرقات الأدبية واصفا العقاد باللص والمنتحل كما أسلفنا وقد ذكر في مقالاته التي نشرها في مجلة العصور سنة 1929م، وهل تعرض فيها إلى قضمة السرقات بنفس طريقة النقد العربي القديم، وأول من أشار ذلك هو الأصمعي في حديثه من شعر النابعة الجعدي بقوله: (والشعر الأول من قوله جيد، والآخر كأنه مسروق من وليس بجيه) أيضا سماه المنتحل والإنتحال هناك من أعلى كونه أمر عادي من النقاد القدامى كالأُسدي:" الذي له رأى أنه ليس من كبير

[1] حب الله علي: المقدمة في نقد الشعر العربي ، ط1، ص220.

عيوب الشعراء لأنه باب لم يسلم منها متقدم ولا متأخر من الشعراء" وقد قال مصطفى عن العقاد: «فإذا ذهبت تقرأ كتبه رأيت أحسن ما يكتبه هو أحسن ما يسرق»[1] ويرى أنت لا يرتقي إلى مرتبة الشاعر وذلك باستخدامه ألقالها منحطة رديئة مستشهدا ببيت هو الآخر من شعره:

مرحاضه أفخر أثوابنا ... ونحن لا نقصر من عذره

عاب لفظة مرحاض واصفا إياها بلفظة عالمية لا يجوز استعمالها في الشعر ولقبه :" يصاحب مرحاضه وفي بيت آخر:

يا من إلى البعد يدعوني ويهجرني...

لا تقيه قائلا الحين تقول دعاء إلى أن يبتعد، ولا معنى لكلمة دعا هنا لأنها لا تفيد إلا الإقبال وكان الأفصح أن يقول: "فيهجرني، ليكون الهجر مترتبا على رغبة صاحبه في إبعاده.[2]

وهو يتخير الأبيات المبتذلة وسلط عليها الضوء ويبين منها المعاب المنحط وكثيرا ما يفعل ذلك، فلا يذهب إلى القصيدة كاملة أو إلى الديوان إنما ينقب على البيت والإثنين ليظهر مواطن السرقة والرادءة على القول والمصطلح البسيط الذي على يؤهله للشعر ونظمه.

[1] الرافعي، على السفود، ص 60.

[2] المصدر نفسه، ص68.

غالبا ما يوازن الرافعي في نقده بين القديم والحديث ومن ذلك مقارنته لبيت العقاد وبيت لإبن فارض في وصفه الخمر مبينا موطن الضعف البائن قائلاً :" توليد سخيف من البيت الأول لابن الفارض"[1] وقارن أبيات الغزل أيضا للعباس ابن الأحنف في الغزل مبينا أنه سرق المعاني من أبياته وليس الألفاظ، وأبيات العباس أدق وأجمل من المعاني التي نظمها العقاد.

وتلك طريقة الأوائل في النقد وها نحن نقف قول الناقد القديم "إبن طباطبة (322هـ):" الشعراء السابقون غلبوا على المعاني الشعرية فضاق السبيل أمام المحدثين".[2] وكأننا ملتمسين على لسان قول الرافعي نفس الخلاصة التي أشار إليها أمام سرقة المعاني، وهذا يبين دلالة إطلاعه الواسع على الإرث الأدبي القديم ومسايرته والقياس والمقارنة بنفس المنهج الذي نهجه الرافعي والذي يسمى "اللامنهج" حيث أظهر أنه يمارس النقد خلفياته وروافده الفكرية والفلسفية غير مفيد بقواعد المحدثين ولا نظرياتهم السائدة والتي شهدت إنتشارا بين نظرائه.

ففي كثير من الأحيان كان ينقد الأخطاء اللغوية أو العروضية التي يقع فيها المبدع، كان بلاغيا والنقد القديم عرف بلاغة وليس كنقد اليوم، أي يشتغل على الجانب البلاغي متنائيا عن المضمون، وقد قال أحد الدارسين : خرج النقد من ضلع البلاغة".

---

[1] المصدر نفسه، ص68.

[2] ابن طباطبا، عيار الشعر، من محاضرة الأستاذ ذبيح محمد _ جامعة ابن خلدون تيارت.

ركز كثيرا على الجزئيات والشكل أكثر من قيمة العمل الأدبي... وتصيد الرافعي في عدة مواطن للعقاد وكتابته، أخطائه اللغوية وهذه صفة النقد قديما مذ كان تذوقا إلى أن صار بلاغيا.[1]

مارس مصطفى صادق الرافعي نقد النقد دون السيد الخضوع المناهج المحدثين بل بطريقته التي أملتها عليه بضاعته في الإرث القديم، فكان نقد النقد عنده غير مباشر لكنه تحليل يحسب له.

انتقد مصطفى الرافعي نقد العقاد بل نقد أعماله النقدية، فقد عاب دراسته لابن الرومي" لما فسر كثرة هجائه دلالة على طبيبة سريرته، فوصفه بالجاهل بتاريخ الهجاء في الشعر العربي، فهو عقب على دراسة العقاد النفسية لابن الرومي والمنهج النفسي كان حديث الميلاد آنذاك أما الرافعي فقد ربطه بتاريخ الهجاء العربي القديم، وقد تطرق الباحث والناقد "باقر جاسم محمد":" إلى التشكل الأول لنقد النقد النظري الغير المباشر والذي ذكر أن نظرية أرسطو في المحاكاة البذرة الجنينية الأولى التي وصلتنا مما يمكن عده نوعا من نقد النقد النظري الغير المباشر على نظرية أستاذه أفلاطون في المثل، التي وردت في كتابه الجمهورية، إذ يجعل الضفتين النظري والتطبيقي بين قوسين لأن الفكر النقدي في تلك المرحلة التاريخية المبكرة لم يكن قد عرف نقد النقد ناهيك عن تصنيفه إلى نظري وتطبيقي"[2].

[1] ينظر: مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، جامعة الرباط، مج الثاني، ع 12.

[2] باقر جاسم محمد، نقد النقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، مجلة عالم الفكر، ع03، ص 254.

كذلك إنتقاد مقاله المعنون به "سيماهم دراسة نفسية" الذي وصف فيه خصومه السياسين، ونسب كل تلك الصفات التي ذكرها العقاد هو صفاته بالذات وليست صفات خصومه.

المنهج النفسي يدل على أن العقاد مشى مع التيار التجديدي النهضوي إلا أن النقد الرافعي وضع هذا المنهج في ميزان التراث ورؤيته من زاويته المعتادة، والحق أنه مع تطور الآداب والفنون، تطور النقد بالضرورة، فهما خطان متوازيان لا جرم فالنقد القديم أجدر أن يمارس في الأدب القديم، وهذا ما عابه المجددين ووجدوه ثغرة في رواق المحافظين ووصفهم المتزمتين.

المبحث الثالث: الذوق السليم والرؤيا الأصيلة في الفكر النقدي لدى الرافعي

يتطرق الرافعي في فصل الآخر إلى المفارقة التي شهدها التاريخ بين الأمم، ويحدد ذلك بين اليونان والغرب، ويرى تشابه بعض الأسباب المعنوية بل والاشتراك فيها قائلاً:" وقد كان عند قدماء اليونان لبعض الأسباب المعنوية التي تشابهوا فيها هم والعرب رواة يتفرغون لنقل الشعر ويقومون في الناس بإنشاده على ويرونه قطعا من التواريخ، وهم يسمونهم (***the prodist***) ومن أشهرهم في القديم رواة الإلياذة لهوميروس، على أن الفرق بين العرب واليونان في ذلك كالفرق بين أمة كلها شعراء بالفطرة وأمه تميز الفطرة منها بعض الشعراء[1]، ونلاحظ من خلال قوله أنه رجع إلى أبعد نقطة في التاريخ واضعا مجالا للمقارنة على طريقة المؤرخين الأكابر، ونرى أيضًا أن مادته الأولى التي كان يغترف منها علمه وبحثه هي

[1] الرافعي، تاريخ آداب العرب، ص21/09.

التاريخ وكان يعتبره مادة دسمة وقوية للتنقيب وإعادة الترويض لما ورد فيه وممارسة النقد عليه والتحسين والتقبيح إن وجد القبح ونراه في كثير من المواطن يعيب نحول الشعر وسرقته والتزيد وهذا التزيد هو الذي يسميه الرواة أكاذيب الشعراء على حد قوله:" وقصارى ما يكون من ذلك أن يتزيد شاعرهم في المعنى ويكذب فيه إذا هو حاول غرضا أو أراهم معنى مما تلك سبيله، وعلى أن ذلك لا يكون إلا هي الأخبار التي تلحق بالتاريخ، لأن الشاعر موضع الثقة، وهو مصدر رواية في العرب، فإن أرسل القول أرسل معه التاريخ فيجريان معا.[1] والزيادة والمرواغة هنا في المعنى، يقصد المعنى الذي ينحرف بالمتلقي فهو همه كذلك يجمع المرسل والتاريخ ويصفهما أنهما يجريان معا، وكلاهما مصدر تؤخذ من المعلومة، ومن هنا نلتمس وفطرة عقولنا أن الرافعي ملم ومحيط بالتاريخ وآدابه ويعتبره المصدر الأول والأصلي الجمع مادته وتحويرها وممارسة النقد عليها.

لقد تمثلت جل الروافد النقدية لدى الرافعي، في مختلف الروافد البيئية والوراثية إن صح التعبير والثقافية عامة والأدبية خاصة التي تكون منها وتجمعت بها مادة الناقد (الرافعي)، وذلك نظرا لمكانة مرجعيته في حياته النقدية.

وإن أمعنا التدقيق في مرجعيته وتأملنا حياته ومساره العلمي سنجد أنه لم يرد على المدارس غير الإبتدائية وذلك بسبب إصابته في أذنيه مما جعله يعزف عن المدرسة الحكومية ويتفرغ للقراءة العصامية

[1] تاريخ آداب العرب، المصدر السابق، ص 301.

ويحصل من العلم ما استطاع من مكتبة أبيه ومكاتب طنطا المشهورة، ينهل من كنوزها العلمية فأحاط بعلم غزير أهله إلى مرحلة النقد والتمييز والتمحيص. وقد أشرنا إلى العامل الوراثي قصدًا على ما حصله من مكتبة أبيه التي كانت الحافز والدافع الأول، فكونه نشأ في عائلة ذات اهتمام كبير بالدين قلبا وقالبا، فنشأ هو أيضا مكبا على علوم الدين وحرصه الشديد عليها، ومتيما باللغة العربية وآدابها – وها هو حلمي مرزوق يقول :" ونعود إلى زاد الرافعي وثقافته التي أخذ نفسه بها منذ أولياتها في المدرسة وإنما انصرف إلى أمهات الدواوين والكتب العربية، فأدمن فيها النظر والحفظ والإطلاع".[1]

ومما لا شك فيه أن الرافعي كان مؤمِنًا أَشدَّ الإيمان بضرورة أداء رسالته في المحافظة على العربية لاسيما عايش الغزو الفكري في تلك الأثناء المتمثل في الفكر الإستعماري وتقاسم التركة العربية وطمس الهوية العربية".

« فترى صدوره عن أمهات الكتب العربية التي يطول بها الإحصاء، ولا يقال فيها إلا أنها في جملتها هي المرجع الأوفى لطلاب الثقافة العربية في مختلف أبوابها إلى اليوم»[2].

فهو يرى أنها صالحة إلى اليوم وأوفى لطلاب الثقافة العربية دون الحاجة للإلتفات إلى الآداب الهامشية متخلين عن آدابهم علم الأصلية.

[1] حلمي مرزوق : تطور النقد والتفكير الأدبي في الربع الأول من القرن العشرين، ص361.

[2] حلمي مرزوق، المرجع السابق، ص361.

وفي الفترة التي بزغت تمت فيها شمس الرافعي الأدبية – كانت مصر حديثة ولادة النهضة الأدبية والفكرية، وقبل تلك الفترة شهدت مصر والأمة العربية أو كما سماها – مالك بن نبي– فترة السبات وكما قال أيضا:" من عادة التاريخ ألا يلتفت للأمة النائمة، وهذا ما جعل الرافعي يعود للموروث العربي في عصوره الزاهية ليستقي منها زبدة ما يوقد قريحته ويُنضج موهبته التي إنطوى عليها سنوات مضت".

« وكان خير ما يقرأ كتابات الجاحظ وابن المقفع، وأحب الكتب إليه من بعد، كتاب الأغاني الأبي الفرج».[1] ورغم ما تذوقه الرافعي من الموروث العربي والفارسي إلى أنه لم يكن مقلدا أعمى فقد كان ينصرف ويجتهد ويضيف ويتفنن إن صح التعبير في الأعمال الشعرية والنثرية كإضافته لسحر الطبيعية وسرها، واستخدام أساليب رقيعة في لغتها وبيانها وأسلوبها القوي والمضامين.

وقد كانت – له – ثلاثة أشياء تشكل بالنسبة إليه عوالم تتميز بها شخصيته كما ذكرنا آنفا ظل متمسكا بدفاعه عنها حتى آخر أيامه: « فالدين واللغة والأدب هي عناصر شخصيته وروافد عقليته وطبع وجوده، لذلك كان يقظ الرأي، شاهد الحس لما يعلق بثلاثتها من أباطيل وشبه».[2]

فمنهم من عاب عنه هذا الأمر فوصفة بالمتزمت الذي بقي في بيئته ولم يشأ أن ينفتح على العلوم الجديدة والبحوث الحديثة – أيضًا هذا الجانب صنع له أعداء ممن وصفوه بضيق الأفق في التحليل والتفكير

[1] مصطفى صادق الرافعي، كلمة وكليمة، ص52.

[2] المرجع نفسه، ص 70.

ووصفه بالرجعي لأنهم كانوا ينتصرون للتجديد بينما بقي على حاله متمسكا بجيله الذي وصفه بالمتين وأنه يكفي ويفي للأمة العربية. [1]

وحقيق بنا أن نقول الحقيقة التي لا مفر منها والتي لا يمكن لأي باحث مخلص أن يتجاوزها ألا وهي أنه رغم إختياره المرجعية التراث العربي أولاً وأخيرا في شعره ونثره – إلا أنه ترك بصمة كبيرة في المحيط العربي في القرن العشرين، إذ أنه عرف كيف يستفيد ويفيد وكيف يستثمر ذلك بأسلوب حديث يليق بذلك الجيل حيث هيئا له أساليب يمكن الجيل الجديد أن يتطلع عليها دون النفور من قوة اللغة كما جرى مع المؤلفات الأولى لكتاب الحيوان والأغاني –لو تأملت– لوجدت أغلب من يقرأ هذه ذات اللغة القرية والبيان الرفيع سوى النخبة والأساتذة الباحثين، أما طلبة العلم أن لم نقل جلهم فيميلون إلى اللغة السلسة والكتب المبتذلة حتى تُأرقهم تلك الكتب ويستطيعون إتمامها وفهمها.[2]

فقد بنى الرافعي حاضرا أدبيا ظل إلى يوم الناس هذا – والذي لم نشأ أن تتخلى عنه لما فيه من ثروة أدبية. وليس من الضروري تعدد المرجعيات بل الأهم نعرف كيف في نسختها حتى لا يبقى الباحث أو الأديب مجرد مقلد أعمى لما إطلع عليه. وأبلغ من ذلك كله أن يقدر على تحوير ذلك الأسلوب الذي

[1] ينظر: مليكة صياد، النقد الأدبي بين العقاد والرافعي، ص209.

[2] مليكه صياد، النقد الأدبي بين العقاد والرافعي، مذكرة ماستر قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف _ المسيلة، ص78.

إغترف منه إلى أسلوب عصره وزمانه لكي تستطيع مشاركته مع أبناء جيله وحتى نظرائه ومخالفيه من النقدة والباحثين.[1]

وهذا دور الباحث أن يتصرف فيما يقتني من علوم ويصنعها على طبق من ذهب ليستفيد منها الطلبة والقراء وحتى أقرانه الباحثين ليثبت أنه قادر على ذلك وأهلٌ له وحتى تكمن مصداقية بحثه ويبلغ مقصده من البحث.

لقد عرفت الإنجازات والإختراعات على طول خط التاريخ نتاج الإختلاف والصراع الفكري المحتدم ولم يكن نتيجة التوافق والإنسجام. وكانت الكتب التي استند عليها مصطفى صادق الرافعي مصدرا قويا للأفكار الأجنبية الوافدة والتي كانت السبب في خلق الصراع الفكري المحتدم الذي أشرنا إليه أنفا.

فقد كان يرى التأثير الكبير بالثقافة الغربية التي أصيب به النشأ آنذاك محاولة للنيل من التراث العربي وطمسه من الجذور. ومما يحسب على الرافعي أنه ارتقى إلى تضاف النقاد الكبار والأدباء ورد عليهم الحجة بالحجة والموضوع بالموضوع أمثال طه حسين كما أشرنا أنفا، أيضا وهذا مال دل فإنما يدل

[1] المرجع نفسه، ص79.

على ثروته الثقافية الواسعة التي أهلته- للولوج في صراع كما وصفه أحد النقاد بصراع العمالقة. ونشير إلى فصل مهم كتبه الرافعي في الجزء الثالث في كتابه وحي القلم تحت عنوان:" نقد الشعر وفلسفته".[1]

تحدث فيه عن الشاعر أولا ونفسيته وهو في نظره لا يعيش عمرا واحد ولكن يعيش أعمارا مختلفة، إذ ينطوي على نفوس تجمع الإنسانية من أطرافها، وبذلك خُلق ليفيض من حياته على الدنيا، وليزيد كل إنسان معاني وجوده المحدود، وليرهف أعصابه : فتدرك شيئا مما يفوق المحسوس".[2] ومما نلاحظه في سطور الدكتور محمد رجب " مشيرا إلى أن الرافعي ابتدأ بالشاعر قبل شعره، وما تنطوي عليه نفسه، وما يمكن أن تمده ويتقاسمه متذوقي الشعر- كون الرافعي متذوقا للشعر وذا قريحة جيدة تمكن من وضع الشاعر على المنصة وشعره، والفضل بينهما وتبيان منزلة ودور كل منهما على حدة.

أما ما قال من الشعر نفسه فقد فصل بين الفكرة وموقعها من الشعور وموقع الخيال من الفكرة والشعور وحدد لكل واحد من الثلاثة دوره وكيفية إستجابة الشاعر له كما ذكر الدكتور رجب قائلاً :" أما ما قال عن الشعر نفسه فقد أوضح منزلة الفكرة من الشعر وبين منزلة الخيال منه، فقرر أن الفكرة ليست شعرا إذا جاءت كما هي في العلم والفلسفة، وإنما الشعر تصوير خصائص الجمال الكامنة في الفكرة أن يلونها الشاعر بما يظهر أسرارها البعيدة، فالشاعر العظيم لا يرسل الفكرة لإيجاد العلم بها في

[1] مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ج 3 ص 238.

[2] محمد رجب البيومي، مصطفى صادق الرافعي فارس القلم، ص219.

نفس قارئها فحسب. وإنما يصنع الفكرة ويتصرف بها لتعطي العلم والذوق معا، وعبقرية الأدب لا تكون في تقرير الأشياء تقريرا علميا بحتًا، ولكن في إرسالها على وجه من التسديد – لأن الفكرة ليست علما وفلسفة فحسب – وإنما هي الصدى المتجاوب في النفس إزاءها ما ألهم الشاعر من العلم والفلسفة، ومتى نزلت الحقائق يجب أن تكون موزونة في شكلها كوزنه، فلا تأتي على سردها العلمي بلا علم ولا صناعة".[1]

إننا نلتمس في هذه السطور أن الشعر تصوير خصائص الجمال الموجودة في الفكرة التي كانت متواجدة في الأصل ثم يتصرف فيها الشاعر كيفما شاء ويكونها بأي لون أراد فقد تكون الفكرة نفسها في ذهن المتلقي لكن ليس بتلك الصيغة التي صبغها بها المبدع (الشاعر) لذلك تحدث وقعا وسحرا في نفس المتذوق فهو يدرك الجوهر ويفقهه لكن اللون الذي وتلونت به الفكرة يزيدها نصاعة وإشعاعا وبذلك تظهر لمسة للشاعر في تصويره للأشياء والأفكار من الشخص الذي يجيد الشعر، فقد صور الرافعي الناحية النظرية في فهمه للأدب والشعر معا، لأن الأدب المبدع كما يرى يحمل رسالة الشعر وروحه، ويستمد الوحي من طبيعة تقرب من طبيعة الشاعر.

[1] محمد رجب البيومي، المصدر السابق، ص 286.

كما يرى أن النقد المعاصر (الرافعي) لا يزيد على أن يكون تعليقا على كلام للشاعر، وبذلك يأتي عمل الناقد كأنه تصنيف وشرح لما يقول الشاعر الشعر وبذلك يكون المشاعر هو من يتصرف في ناقد.[1]

ويرى أن الناقد الذي يزحم النقد بأحوال الشاعر وأخباره وظروفه وتاريخه –إنما الكاتب يمارس الإنشاء لأنه وجد مادة إنشائية وقام بالإشتغال عليها، والنقد ليس كذلك إنما هو الإشتغال والإطلاع عليه الذوق والخيال والقريحة – هذه ثمرة النقد.

وكأننا نلتمس في رأي الرافعي في موضوع النقد أنه من رواد النقد النسقي ولو لم يذكر ذلك بصريح العبارة إلى أنه ممن يشتغلون ويؤمنون أشد الإيمان أن الناقد ينبغي أن يعمل على الإبداع ومجرياته بعيدا عن المبدع وتجلياته وظروفه وتاريخه الإنساني أو لأنه الأدبي.

وتحدث في نفس الجزء من وحي القلم – عن الشاعر (إسماعيل صبري) فقارنه محمود سامي البارودي وذلك لتقارب زمانهما – وقد قال : " إن البارودي قد نبغ قبل صبري بعدة سنوات، ولكن للجزالة العربية والأدب الفارسي هما رافد البارودي، أما صبري فقد تحول إلى الأدب الإفرنجي والرقة العربية، وهذا موضع التفاوت في شعر الرجلين اللذين إقتضى الخيال الشعري من طرفي الأرض، وكلاهما

[1] محمد رجب البيومي، مصطفى صادق الرافعي فارس القلم، ص263 وما بعدها.

يذهب مذهبا خاصا.... فجاء البارودي حافظا كأنه مجموعة من دواوين العرب والمولدين، وجاء صبري مفكراً كأنه مجموعة أذواق وأفكار".[1]

وكأنه قام بالموازنة والمقارنة بين كل من شعر بهما ومما استمدوا واستقيا إلهامهما واصفا البارودي كأنه مجموعة دوأوين العرب – كأنه يقول أن البارودي تشبع بالإرث العربي والفارسي فظهر ذلك في شعره وإبداعه – أما صبري فيما بدا لمصطفى الرافعي أنه تحول إلى الأدب الإفرنجي محافظا على الرقة العربية وأن لكل منهما خصوصية تميزه عن صاحبه.

فالبارودي حافظ أما صبري خليط من أذواق وأفكار– إذ نستنتج أن ما قاله ضمنيا الإرث العربي فيه الدورة والجمال أما الإرث الإفرنجي ميال للفكر أكثر منه للذوق وقد ظهر ذلك في شعر صبري.

ثم يأتي دور حافظ إبراهيم ويضعه في موضعه الصحيح لكن يسلط الضوء في حافظ وقد عيب عليه أنه يعيد نفس النمط ولا يترسل شعره بين النفوس المختلفة المتلقية لذلك الشعر فيقول:" ولا كان شاعرنا عبقريا عجيب الصنعة قوي الإلهام... ولكنه كذلك هي مذاهب من الشعر دون غيرها، فلم يكن معه من التمام في فنون الشعر .. وكم من مرة نبهته إلى ذلك وقلت له إنه كالنمط الواحد، وإنه يجب أن يترسل شعره به النفوس الإنسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة، فإذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة

[1] حمد رجب البيومي، مصطفى صادق الرافعي فارس القلم، ص269.

هي السياسة، ولا ينبغي أن يكون شعره كشمس الصيف فإن للربيع شمسا أجمل منها وأحب، كأنما هي مجتمعة من أزهاره وعطره ونسيمه.[1]

وكان الرافعي يبين ويوضح للحافظ مدى تعلقه بالسياسة، وربطه بها حتى في نظمه للشعر وأن السياسة شق من الحياة وليس الحياة كلها وكما أن الشعر أيضًا شق من الحياة فلكل خاصيته ومميزاته – ولا يمكن أن يكون شعره شعر ظرفيا آنيا وقد مثله بشمس الصيف واصفا أنها أقل جمالاً وحبا من شمس الربيع ثم قال :" قال الحافظ للرافعي أنا لا أعد شاعرا ء إلا من كان ينظم في الاجتماعيات، فقلت له : ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة"، إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد».[2]

فهو يرى مادة الشعر غير روحها وهي غير محصورة بينما المواد الاجتماعية والسياسية محصورة في زمان ومكان وعلى الشاعر أن يطلق بأحاسيسه ويسرح بها حتى تكسر سلم الزمن وتصبح صالحة لكل زمان ومكان كأشعار العرب وأشعار العباسيين وغيرهم والتي لا زالت تقرأ ويتغنى أبناء اليوم والغد– وقوله أنت شاعر ينظم مقالات الجرائد أي أنك لا تقرى على النظم سوى في المقالات التي تُكتب في الجرائد أما أنك من الشعر كشعر أصلي فلازلت متنائيا عن ذلك وتأمل قوله أيضًا: «...على أن الحقائق ليست هي الشعر وإنما الشعر تصويرها والإحساس بها في شكل حي تلبسه الحقيقة من النفس».[3]

---

[1] مصطفي صادق الرافعي، وحي القلم، ج2، ص272.

[2] نفسه، ص15.

[3] مصطفي صادق الرافعي، وحي القلم، ج2، ص 17.

في هذا الأخير تفصيل وتوضيح لما أسلفنا القول أن الحقائق ليست الشعر والشعر يكون مختلفاً عن ماديات الحياة وملموساتها بل تصويرها والإحساس وتلوينها بصبغة من الخيال اللامتناهي الذي يرتفع على عالم المادة.

أما تقديره لشوقي في نفس الجزء في كلمته النقدية قائلا :" هذا هو الرجل الذي يخيل إلى أن مصر قد إختارته دون أهلها جميعا، لتضع فيه روحها المتكلم، فأوجبت له ما لم يوجب لغيره، وأعانته بما لم يتفق لسواه".

ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمة تريد أن تكون شاعرة، لا على قدر رجل في نفسه، وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ: شعري وأدبي.

وعلى حسب الدكتور رجب:" أن العبارة الأخيرة مبالغة ظاهره ومقصده من الرافعي ليغيض بها بعض خصومه الذين كانوا يشنون حربًا على شوقي وينقدونه بعنف دام على حد وصفه، لأن شوقي ليس الوحيد الذي تقول مصر ذلك عنه وإلا فأي معاصرو شوقي وأساتذته ؟".[1]

ليعود الرافعي مستطردا قائلاً: " ... كل شاعر مصري هو عندي جزء من جزء، ولكن شوقي جزء من كل، والفرق بين الجزئين أن الأخير في قوته وعظمته وتمكنه وإتساع شعر، جزء عظيم كأنه بنفسه

[1] مصطفي صادق الرافعي، وحي القلم، ج2، ص 295 وما بعدها.

الكل..."[1] شوقي إذ هو أبرز شعراء العصر كله لإتساع شعره وعظمته في إرثه الشعري وقد ذكر في موطن آخر أن شوقي خلف إرثًا عظيما لم يخلفه قبله من الشعراء ولا بعدة أمن حيث الحجم وعدد الدواوين، وهذا إن دل فإنما يدل على أنه واسع الأفق والمدى وأنه تمكن وقدر على الشعر وتصرف فيه أحسن التصرف وكأنه خلق للشعر لا لشيء آخر وأن مصر إختارته ليكون سفيرها الشعري والأدبي إلا لأنه أهل لذلك، ولم يتطرق لمعايشه وحسب، فقد تعرض في لمقدمته إلى أخطاء كثيرة وقع فيها شرقي ونقد ذلك مطبوعا ومؤيدا بالدليل، ثم توالت إنتقادات الرافعي الشعراء وأدباء كعلي محمود طه، ومحمود أبا الوفاء، وصروف اللغوي، وتوفيق الحكيم وفي هذه الإنتقادات وفي غيرها ما يهيء للرافعي مكانا في دنيا النقد.[2]

المبحث الرابع: الموروث الإسلامي وتشكل الوعي الثقافي عند الرافعي

لقد شهدت رسائل الرافعي أفكارا عظيمة ممتازة، فقد كانت توجه إليه أسئلة مختلفة من فنون فيجيب عنها مقنعا وممتعا، وها هو الدكتور رجب البيومي:" إن في رسائل الرافعي أفكارا جيدة في اللغة والتفسير والحديث والبلاغة، إذ كان أبوريه[3]، يسأله عن فنون مختلفة في علوم العربية فيجيب عنها بإقناع وإمتاع، بين ذلك ما كتبه عن أفكار المتكلمين والبلاغين، وعن الأسلوب البليغ وكيف يقرأ؟ وعن رأيه في

[1] محمد رجب البيومي، مصطفى صادق الرافعي فارس القلم، ص 272.
[2] نفسه، ص273.
[3] أبارية، تلميذ الرافعي الذي كان يراسله بأخباره وشؤونه.

الحجاب والسفور وعن تحليله الأسلوب الشيخ محمد عبده بدأً وخاتمة، وعن وحي القرآن لفظا ومعنى، وعن التعليم الإنشاء العربي تفسير أية ﴿ لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ سورة الغاشية-الآية 07 ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهواتِ ﴾ سورة آل عمران-الآية 14 كي ينحو هذا المنحى.[1]

قد أظهر الدكتور أهمية الموروث الإسلامي لدى الرافعي وإهتمامه به وبالبلاغة وبوحي القرآن وتفسيره للآيتين. وما كل ما سطره في إجاباته وتفاسيره ها مما لا حظه وتذوقه ليس مما إطلع في آثار الأسلاف.

وأيضا نجده غيورا على نبيه العظيم، وناصحا لتلميذه الذي ذكر النبي عليه الصلاة والسلام دون إتباعه بصيغة الصلاة والسلام عليه قائلاً :" إنك كررت في كتابك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم دون أن تتبع إسمه الشريف بصيغة الصلاة عليه وهذا سوء أدب لا أقبله أنا من أحد، ولا أقر أحدًا عليه، وأنت حين تقول في كتابك (إن الألفاظ ألفاظ محمد) لا تكاد تمتاز عن رجل مظلم القلب ، نعوذ بالله من هذه الظلمة، فأنتبه إلى ذلك واستغفر الله لنفسك".[2]

وقد بين لنا الكاتب غيرته الشهيدة على المقدسات وعلى النبي الكريم واصفا إياها بظلمة القلب والتحذير منها وإيقاف أعز الناس عند هذه النقطة العظيمة.

[1] رجب البيومي، مصطفى صادق الرافع فارس العلم تحت راية القرآن.

[2] فؤاد نعمات أحمد، دراسة في آداب الرافعي، ص 80.

لقد درس صادق الرافعي كتب الفقه، وجعل من بطونها مادة خام لحديثه وكتاباته الدينية مما جعله تسمو بأدب رفيع حين كتب عن الصلاة، وكسر المألوف بصبغته وأسلوبه الذي لم يعهده القارئ في خطب الجمعة والدروس الدينية كما تصرف ابن القيم في كتابته مخالفا شيخه ابن تيمية رحمهما الله فتفرد بأسلوب الديني المميز متجاوزا التقليد المألوف الذي ينفى القارئ هذا المسار سار صادق الرافعي وأبدع في الكتابات وقد ظهر ذلك في حديثه من الشعائر بأسلوب راقي ممتاز وها هو يبدع قائلاً:«الله أكبر! صوت رهيب ليس من ولغة من صوته، ولا من خسته كأنها تفرع السماء فيه ملء سحابة على رجس قلبها، فتنقيه حتى ليس به ذرة من دنس الذي ركبه الساعة، كان لصاحبها في حتى أعصابها ذلك الصوت الأسود [قبل الآذان] المنطفىء المبهم المتلجلج مما فيه من قوة شهواته، المؤذن صوت آخر في روحها، صوت أحمر مشتعل كمعمعة الحريق، مجلل كالرعد، واضح كالحقيقة فيه قوة الله! ... كانت طهارتها تختنق فنفذت إليها السمات وطارت الحمامة حين دعاها صوت الجو، بعد أن أسفت حين دعاها صوت الأرض ...».[1]

تفنن الرافعي في وصفه طريقه إلى المسجد وما أشج في نفسه من معاني الإذان ما جعله نشيدا إسلاميا يحفل بأرقى معاني الإنسانية. وتأمل قوله:« الله أكبر، بين ساعات وساعات من اليوم ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها تهتف: أيها المؤمن، إن كنت أصبت في الساعات التي مضت، فاجتهد

[1] مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم،ج1، ص 316.

للساعات التي تتلو، وان أخطأت فكفر وأمح ساعة بساعة، الزمن يمحو الزمن، كنت والعمل بخير العمل ...».[1]

إن توصيفه بليغ جدا فقد جسد النداء وما يرمي إليه نفس السامع وكذالك شارحا للمؤمن كيف يكفر ساعة بساعة ولا ييأس عند الذنب والخطيئة وأن الأمل موجود دائما وقائلاً في معنى كلامه أن آخر الدقيقة في العمر هي أمل ضخم هي رحمه الله الواسعة لكل شيء، أما حديثه عن المسجد أيضًا يوقع في النفس وقعا صارخا يتحرك كل ذي فطرة سليمة وهاهو يبدع ويتألق كعادته: «ذهبت إلى المسجد الصلادة الجمعة، والمسجد يجمع الناس بقلوبهم، ليخرج كل إنسان من دنيا ذاته ، فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد، ولقد يكون إلى جانبك الصانع أو الأجير أو الفقير أو الجاهل، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغني أو العالم، فتنظر إليه وإلى نفسك فتحس كأن عواطفك متوضئة متطهرة، وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحها وكلمة التواضع قد وجدت روحها، وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحرب للنفس المنفردة، ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيت الفقير إلى جانبك توبيخا لك، ونظرت إليه ساكنا، وهو يتكلم في قلبك، وشعرت بالله من فوقكما، واستعلنت لك روح المسجد كأنها تهم بطردك منه .... وإنما أنتما هناك في إنسانية ميزانها بيد الله وحده، فلا تدرى أيها الذي يخف، وأي كما الذي يثقل».[2]

[1] المصدر نفسه، ص219.

[2] صادق الرافعي، وحي القلم، مج03، ص 244.

لقد بين لنا الرافعي دلالة التساوي عند الدخول للمسجد وسقوط الرتب الدنيوية أمام المولى سبحانه وأنا كلنا فقراء إليه جمل وعلى ما أبلغ تحليله وتجسيده إلى حالات المسلمين وهم في بيت الله. وما يخالج النفس البشرية أثناء وقوفها أمام البارئ، إذ تتحطم كل أوهام الكبرياء والعظمة أمام من هو **أكبر** من كل شيء، وهذا إن دلّ فإنما دل على شيء واحد فقط، أن موروث الرافعي الإسلامي قوي جدا ولو لم يكن كذلك ما توصل إلى مثل هذه الدراسة للنفس العابدة والروح المتشبعة بالدين الإسلامي.[1]

وحديثه عن الانصراف إلى الصلاة قال فيها ما لم أحد غيره، وصف بليغ ملهم ومعين لمن يتكاسل عن الصلاة، قائلا: « بالانصراف إلى الصلاة، وجمع النية عليها يستشعر المسلم أنه قد حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يحد فيها إلا بالله وحده، وبالقيام في الصلاة، يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كانت منتصب مع الكائنات يسبح بحمده. وبالتولي شطر القبلة في سمتها الذي لا يتغير على **اختلاف** أوضاع الأرض، يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة، فيحمل قلبه معنى الإطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها، وبالركوع والسجود بين يدي الله، يشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون، وبالجلسة في الصلاة، وقراءة التحيات الطيبات يكون

[1] المرجع السابق، ص13.

المسلم بالتا فوق الدنيا يحمد الله ويسلم على نبيه وملائكته ويشهد ويدعو وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة، يقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديد من جهتي السلام والرحمة....».

مستكملا أيضا : « خمس صلوات، وهي كذلك خمس مرات، يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا، فما أدق وأبدع وأصدق قوله صلى الله عليه وسلم : "جعلت قرة عيني في الصلاة"[1]. وما أفقهك يا مصطفى صادق في تحاليلك لشعيرة الصلاة منذ الابتداء حتى الانتهاء، وتحليلك المبهر لخطوات التوجه إلى الصلاة حتى الانصراف، وهذا يخبرنا أن حبك للصلاة وتعلقك بها متجذر في كيانك الحساس المليء بالروحانيات التي قدر لك إدراكها واستيعابها ومن ثم توصيفها.[2]

كما استشهد كاتبنا المبدع أحسن استشهاد بقصة (مارية) الأسيرة المكرمة التي شهدت المسلمين ينهضون للصلاة حين صباح المؤذن (الله أكبر)، ولم تكن تدري عن الصلاة الإسلام شيئا، فثار فضولها وسألت صاحبها الذي يقتادها عن حقيقة ما نشهد ونسمع فقال لها : إن هذه الكلمة [الله أكبر] يدخل بها المسلمون في صلاتهم كأنما يُخاطبون بها الزمن أنهم الساعة في وقت ليس منه ولا من دنياهم، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدي من أكبر من الوجود، فإذا أعلنوا إنصرافهم عن الوقت، ونزاع الوقت وشهوات الوقت، فذلك هو دخولهم في الصلاة، كأنهم يمحون الدنيا من النفس ساعة أو بعض ساعة،

[1] صادق الرافعي، وحي القلم، مج03، ص 13.

[2] رجب البيومي، مصطفى صاد الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن، ص148.

ومحوها من أنفسهم هو إرتفاعهم بأنفسهم عليها، ألا ترين هذه الكلمة قد سحرتهم سحرا فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء، وقَدْ شَمَلَتْهُم السكينة، ورجعوا غير ما كانوا، وخشعوا خشوع أعظم الفلاسفة في تأملهم".[1]

عبقرية الرافعي جعلته يصف الصلاة الإسلامية، بمنظار الطرف الآخر أي **الإ**نسان الغير المسلم وهو يرى الصلاة ويركز مع أدق تفاصيلها ويحاكي بها الأسيرة فقد تجاوز الرافعي رؤية المسلم للصلاة رؤية مألوفة معتادة بالفطرة فقد نبه إلى انبهار حتى من هو عن غير الإسلام.

أيضا تحدث على الخُطب والخطيب وذكر أن معظم الخطيب المنبرية مكررة وموسمية فقد ألفها السامعون وكَادُوا يَحْفَظُونَهَا قاصدا الكثرة والعالمية وليس الأقلية.

وقد أشاد أنه لا يذكر أحاديث الجنة والنار واليوم الآخر أي خطبها فهي خُطب يجب أن تعرف، ولكنه قال أنه حديث مشتهر يعرفه السامع قبل أن يأتي إلى بيت الله مُستعدا إلى إضافة جديد يضاف إلى رصيده.

ومما دفع الرافعي للتصريح بهذا القول أنه سمع ريفيا ينتقد الخطيب وقال أنه قال:" لم يقل شيئا ينفع الناس ويهمهم وينبغي أن تكون في أخص أحوال المسلمين.[2]

[1] صادق الرافعي، وحي القلم، مج03، ص 25.

[2] محمد رجب البيومي، مصطفى صاد الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن، ص151.

فقد عقب عليه وعلى كلامه مما وجد فيه ضربا من الصواب والحقيقة قائلاً: «نبهني هذا الرجل الساذج إلى معنى دقيق في حكمة هذه المنابر الإسلامية فما يريد الإسلام إلا أن تكون كمحطات الإذاعة، يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها في صيغة الخطاب على الروح والعقل والقلب، فتكون خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع وبهذا لا يجيء الكلام على المنابر إلى حيا بحياة الوقت، فيصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة وانتظار الشيء الجديد، ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل ».[1]

المبحث الخامس: النزعة الإنسانية في كتابات الرافعي

وتحدث الرافعي من الزكاة وفصل فيها في كتاب "المساكين" وبين فضل الزكاة على الأمة الإسلامية وأنها حق الله على العباد، كما أبرز عاقبة البخل والشح وبين فضل الزكاة على النظام الإشتراكي بتحليل مبهر قائلاً:" ليس في الوسائل الاجتماعية كلاها ما يعدل نظام الزكاة في الإسلام وفي هذا الدين الإسلامي العظيم أصول إنسانية عامة لابد أن تنتبه لها الأمم، فتكون سببا في إقبالها عليه وظهورها على الدين كله ومن هذه الأصول الزكاة، فلو أنه أخذ ربع العشر- اثنان ونصف في المئة- من ثروة العالم

[1] صادق الرافعي، وحي القلم، مج03، ص 247.

بأجمعه كل سنة، وجُعل المصالح الفقراء الأصلح الفقر والغنى معا، ولكن **الاشتراكية** تحاول محق الرباء لمحة رأس المال. وتعمى عن نظام الزكاة، وهذا من شرها.[1]

فهو يرى أنه من أهم الوسائل الإجتماعية هو نظام الزكاة الذي يخلق الإتزان بين الفرد والمجموع، كما وصفتها على أنها أصول إنسانية عامة تصلح على الأغنياء والفقراء معا وهذا تحليل وتفصيل عميق من الرافعي فقد رأى أن الاشتراكية تريد محق الربا بمحق رأس المال وهذا من عيوبها، فمحق رأسمال في ظلم وأصحابها وبذلك وتكون قد أحسنت للفقير على ثروة الغني أو تعسفا وهذه المنظومة لا طائل منها وهي منظومة مثالية لا يكن تجسيدها على أرض الواقع عيوبها.

وتحدث الرافعي أيضا عن الصوم وبطريقة تدهش اعتدنا الأساليب المألوفة ولما مررنا بما قاله الرافعي وكتبه كنا كمن رأى مناما ثم انتبه فقد قال: «الصوم فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضا، ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير، ومن ملك القرش الواحد، ومن لم يملك شيئًا، كما يتساوى الناس جميعا في ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع، فقر إجباري يراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وأنهما إنما تكون على أتمتها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم

[1] صادق الرافعي، كتاب المساكين، ص 63.

الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة، ومن قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم».[1]

يرى الرافعي في تحليله لشعيرة الصوم أن النفوس تنزل إلا مستوى واحد وهذه هي الحكمة البالغة في ذلك. وأن الجوهر الحياة الحقيقية وراءها لا فيها، فشبع اليوم زائل وغنى عابر أما الشعور باق، فعند الصوم تتماثل الأنفس في الشعور بالألم والجوع والعطش ومن هنا تنشأ الرحمة وتتفتق نتاج معاناة الصوم التي يمر بها البشر.

والحق أن تحليله لهذه الفكرة فائق العمق فقد تجاوز المعاناة البيولوجية للإنسان الصائم وخاض في أغوار النفس وأطل الشعور الذي ينشأ عن ذلك.

وبما أن الإنحلال ظهر في تلك الأثناء والحركات النسوية التحررية ثارت في تلك الأثناء وكثر الكلام عن تحرر المرأة وحقوقها كما أورد "قاسم أمين" وبين التبرج وتجاوز الحدود التي شرعها الله للمرأة في الإسلام وتضاربت الآراء وإختلفت قال الرافعي فيما قال عن الحجاب، وفي حدود ما أباح الله.

"وما الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة، وإغلاء سعرها في الاجتماع، وصونها من البذل الممقوت، لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم، قانون العرض والطلب، والإرتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادى عليها في مدارج الأسواق العيون الكحيلة، الخدود الوردية، الشفاه الياقوتية، الثغور اللؤلؤية،

[1] صادق الرافعي، وحي القلم، مج02، ص 68.

الطرق والأسواق، الأعطاف العربية أوليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغايةَ المرتجة، وأصبحن إلى لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا، فإنهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادي أجسامهم بمثل هذا ؟!».[1]

يرى الرافعي أن الحجاب هديه الشرع لها فهو الواقي لها والحصن المنيع وحفظ لروحانيتها وأنها كلما كانت مستترة غامضة زاد الطلب عليها، وارتفع شأنها ومقامها إلا إذا أبت ونزلت عن منزلتها التي رفعها إليها الشرع وأعزها بذلك. فقد أصبحت في الأسواق ويعترين ويساومن يُشترين ويبعن بأبخس الأثمان.

هذا ما حز في نفس الرافعي وجعله يكتب عن المرأة وسترها، ولولا تحبه للمرأة العفيفة التي هو رمز للأمة الإسلامية لما تأسف وتوقف عنه ما جرى في مصر الأمة العربية في تلك العشرة فقد راني المجلات ينشره صور الخليعة مرفوقة بمقالات تدعو إلى المجون والتحرر الفاسد.[2]

[1] محمد رجب البيومي، مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن، ص147.

[2] صادق الرافعي، وحي القلم، مج01، ص 195.

الفصل الثاني:

قراءة تحليلية في كتاب " المساكين"

مصطفى صادق الرافعي

مدخل تطبيقي:

لقد وضع الكاتب العملاق (مصطفى صادق الرافعي) في هذه الأوراق (كتاب المساكين)كتب فيه عن الفقر كما قال وما هو من باب الفقر كما ذكر أول الكتاب لا لمحوه ولكن للصبر عليه ولا من باب البحث فيه ولكن للعزاء عنه وكتب عن الغنى وما إليه –لا رغبة في إفساده على أهله ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله.

كما تبين لنا أنه إشتغل في هذا الكتاب القيم، على شيء أراد به تفسير حكمة من حكم الله في هذه الحياة أو كما وصفه في بداية هذا المؤلف قائلا:أردت به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس فإن من ضرائب اللوم وغرائز السوء في هذا الإنسان أنه ما ينفك يحمل الطاووس ألوانه وتحاسينه وزينته البديعة على ساقين مجرودتين في الغاية من القبح كأنهما الغراب".[1]

فهو يرمي إلى عزة النفس والثقة بالله وأن الصبر على الفضيلة –فالفقر عند الرافعي هو الغنى هو أن تتصرف في الأشياء لا أن تتصرف فيك وتجرك إلى الزاوية الإحتياج الدائم، حيث أنك لا ترى من الدنيا سوى ما تفقد فتبقى في بحث دائم واستدل بقول الفيلسوف الإغريقي في مستهل كتابه قائلا: ديوجناس الكلبي:" ينبغي أن نقدر ثروة الإنسان لا بأمواله ومستغلاته، بل بعدد الأشياء التي تستطيع العيش غير محتاج إليها".

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص28.

ويرى الرافعي أيضا أن الرجل يزعم أنه يكنز الذهب والفضة ويعلو بذلك ويسمو والحق أنه ينزل ويسفل إلى أسفل منازل الإنسانية فهو يرى أن الجانب الإنساني يمتص ويذبل مع الترف والغنى المادي حيث يتحول الجانب المعنوي إلى مادة أيضا، ويقول في معنى ما يرمي إليه أن الإنسانية لم تعد تتقدم خطوة بسبب ما أرهقها وهي تلهث وراء المادة متجاوز الجانب المعنوي فهو بوصلة الإنسان التي لا غنى له عنها قائلا في ذلك:" أنكم لا تجدون معاني الغنى الصحيح الذي لا فقر له إلا في الأجسام والعقول والأنفس ولن تجددوا معنى واحد خلق في صندوق أو خزانة ".[1]

فتبخر القيم الإنسانية أمر ظاهر بين وهو أن البشر يلهثون وراء ثروة تحول بينهم وبين النفس الإنسانية الزاهدة المستغنية غير المملوكة بأي شيء كان من الملموسات فأن ترتفع عن العالم فذاك هو السمو الحقيقي والغنى الجلل الذي لا يثني بفقدان أو زوال، وفي الأثناء أستحضر قول التبريزي رحمه الله:" أتراك يا ولدي فإنه من ترك ملك". ولو تأملنا أثمن الأشياء وأعزها لوجدنا التاريخ يشير بإصبعه إلى الأمور أسمى من العالم الملموس–فالحقيقة تصيح كما قال الرافعي من أفواه الأنبياء والحكماء والفقراء، فكل ذلك ليس إلا جهل وبخل وطمع وتسفل.

كان محور الفصل هو الشيخ علي الذي كان فقيرا في أعين المجتمع وغنيا في عين نفسه والناس النبلاء والخلصاء للجانب الإنساني وتأمل سيدي القارئ وصفه البليغ للرجل :" هو رجل تراه في ظاهره من الدنيا

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص31.

لكن باطنه يلتحق بما وراء الطبيعة وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة، غير أن أمرهما مختلف جدا، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به".[1]

فالشيخ علي هذا هو رمز في كل دهر لثبات الجور الإنساني على تحول الأزمنة على أشكالها المختلفة.

الشيخ مثال متواجد في كل مكان وزمان أي جميع تجد نسخة منه كل دهر فهو متواجد تواجد الإنسان نفسه ويحمل نفس الجوهر البراق فمتى رأيت زاهدا متحفظا عن زخرف الحياة وحلاوتها فاعلم أن الشق المعنوي أو الإنسان قد غلب عليه واستحكم على نمط عيشه، فوجدته مستأنسا وسعيدا إلى أبعد الحدود وحتى يحتار فيه أغنى الأغنياء، وقد جعلها ربي حقا في محكم تنزيله قائلا: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[2]. صدق المولى جل شأنه.

والزهد أن يكون المال في يدك لا في قلبك، يقول سفيان الثوري رحمه الله:" الزاهد هو المعرض عما عنده لقلة شأنه لديه" فقد تكون فقيرا لكن في قلبك الدنيا بألوانها.

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص34.

[2] سورة البقرة/ الاية 279.

الفصل الأول: الشيخ علي

استهل الرافعي الكتاب بوصفه الشيخ علي مثال الزهد وحامل لواء الإنسانية، قائلا :" كما ولد هذا الرجل، ولعل الطبيعة كانت يومئذ في صميم الخريف، ثائرة مجرودة غبراء، وكأنه روح كتب عليها الحبس في جسمها فلا تشهد أمرا من ورائه حتى تنطلق وكأنه حي على رغم الحياة".[1]

وقال فيه أيضا:" كله أرض بور، فهو عصر برأسه من تاريخ الأخلاق وعلى أي الوجوه إعتبرته وجدته، كشيوخ الفلاسفة وحكماء الدنيا يعيش الناس بعقل غير العقل".[2]

الشيخ علي لا ينشغل بنفسه على نفسه، فلا صلة له بالمادة حوليه وإن كانت جزء منه (جسده) إلا أنه يعتبرها وعاءا يحمل ما هو أسمى (الروح)، يراه الناس بمنظار الشفقة والضعف يتفادونه رأفة بحاله ويتحاشاهم هو استغناء وأنفة، والآلام عنده تتساوى أكانت من بشر أومن طبيعة إنسانية، فألم البطن والظهر فهو نفسه ألم من أساء إليه من جنس البشر، فهو يراهما بنفس المنظار يعرض عنهما بنفس الطريقة كعابر لم يلتفت لما يعتريه في الطريق فغايته العبور وإنتهى.

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص33.
[2] نفسه، ص34.

كان يفترش الأرض ويلتحف السماء، داره عتبة كل باب، ويتأمل أحوال الناس ويسمع طلباتهم اللامتناهية فالأول يقول: يارب أعطيتني المال فأين الصحة؟ والثاني يقول يارب أعطيتني الصحة والمال فأين السعادة؟ فيجيب الشيخ علي بسؤال أبلغ وأعمق من كل الأسئلة السابقة قائلا: يارب كل هؤلاء صور فأين الأصل؟ اين أدم الرافعي؟ اين المؤمن القنوع بما عنده؟ ما أجل رويته الثاقبة لأحوال الناس والمجتمع، كأنه معلم والناس تلامذته، سبحان من أمده بالحكمة البالغة في تقلبات الدهر وعواصف الحياة التي يتقلب معها الجميع ما عداه ، ثابت أمام أهوالها مدرك لحيلها، راسخ كالجبل لا يثنيه ما أحاط به، متأمل بإبتسامة عارف أوليس هذا عين الغني؟.

وقد اختصر وقلص اتصاله بأي جهة من الجهات الأربع في دنيا الله وعزم على الإتصال بجهة السماء وحدها وفقط، والحق أنها جهة لا تفقد –من جهة السماء – هي أساس جهات الكون كله بتقلباته ونعيمه ونرى حكمة الشيخ أنه تمسك بالجهة الوثقى التي هو محور ومركز الجهات ومنبع السعادة في الدارين.[1]

السعادة لصيقة بالجوهر الإنساني، وقد قال رسولنا صلى الله عليه وسلم في بعض دعائه : ﴿اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وأَمِتْنِي مِسْكِينًا، واحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَومَ الْقِيَامَةِ﴾، فقال له أنس بن مالك رضي الله عنه يا رسول الله، إنك لتكر من هذا الدعاء قال :"يا أنس، إن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين".[2]

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص36.

[2] رواه الترمذي (2352) وإبن ماجة (4162)، وقال الترمذي هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

ذلك لأنهم جوهر ومادة الأخلاق والعواطف ووجدوهم في الإنسانية هو أساس الإنسانية حتى تسير عجلة المجتمع والأفراد ومن رحمة الله بالناس أنهم متواجدون بين الناس أوليس كلما تأمل الواحد منا مسكينا توقف واستشعر نعمة الله عليه ظاهرها وباطنها!، تتحرك تلك النزعة الإنسانية في الواحد منا عند مصادفته لمثل هؤلاء في المجتمع.

" الشيخ علي" رمز الإنسانية في كل العصور هي كل العصور كما أشرنا سالفا كل ينعم بهدوء وسكينة وطمأنينة عجيبة لذا فهو استغنى عن من رآه على هامش الحياة السعيدة بينما يرى نفسه في الرواق الصحيح.

وقد قيل في الأثر :" لوعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من الشرور والنعيم إذا لجالدونا بالسيوف"[1]. قد يستغرب قارئ هذا الأثر كيف لملك يتقلب في النعيم والخيرات اللامتناهية يقاتل إنسانا بسيطا عند قوت يومه.

ولعمري، أن قائل الأثر عاش الحالتين وتذوقهما فانطلق لسانه وانتصر للبسطاء الذين لا تفارقهم رحمة الله طرفة عين، ولو لم تلامس النفس البشرية وتطابقت مع واقع معاش لما بقي تداولها على الألسن على مر العصور حتى يوم الناس هذا.

[1] إبراهيم بن أدهم الفليسوف(718 بلخ- أفغانستان) (توفي 777م).

ليبهرنا الرافعي بوصف لما في أغوار النفس الإنسانية مطلا على غياباتها التي عجز عنها الكثير أولم يتجرأ على القول بذلك لما عز في نفوسهم من دينار ودرهم ورغد عيش ، يقول مصطفى على لسان الشيخ علي :" ولو رأيت من زاويته عليك أنه ما أكبر هذا الدينار في عينيك إلا صغر في نفسك، ولا ملأ يدك بالحرص عليه إلا فراغ ما بينك وبين الله ، ولا كدك في طلبه إلا أنك مسحر، ولا أذلك للمال إلا خضوعك للآمال، وما أنت إلا في قيد من الهم حببه إليك أن قفله هذه من الذهب"[1].

يرى شيخنا الحكيم الثروة الذهب نظرة مستقلة لا يراها بها الناس جميعا بل وقد يحار ويستغربها عامة الناس هو يرى ويتبين أن أولئك الذين يحرصون على اكتناز وجمع الذهب والفضة والأموال الطائلة مسا كين وضحايا لأقفالها المرصعة بالذهب، يشفق عليهم كأن لسان حاله يقول:" هم ضحايا وعبيد لتلك القطع ليس إلا.

ومتى أحس الجوع والعطش ولج الباب الذي يصيبه مفتوحا، فهو يلج دون دعوة ويضع في جوفه اليسير ثم ينصرف، يكتفي بلقيمات تقيم صلبه وتسد رمقه ثم ، يلتفت، ولا يرى ذلك تطفلا بل يراه أنه استوفى حقه من خادم طبيعي ساقه إليه القدر وقدر له لقمته عنده ولا يتجاوز هذا الحد بعينه هو من يحفظ الود بينه

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص28

وبين الناس حفيف على القلوب لا يجزع من الأكابر ولا الصغار كأن له قبول تجاوز حد الإخوة بينهم، ثم إنهم قد التمسوا أنه مأمون الجانب لا يؤذي مثقال ذرة من شر.[1]

وإذا تكلم ترمم من طول السكوت، السكوت أحب إليه من كل الكلام المعسول بالذهب، سكوته يغترف منه الحكمة والنظرة الثاقبة من عالم الصمت، يقول كاتبنا الرافعي:" هذا هو الشيخ علي رايته فرأيت في برده ثورة على العالم الإنساني، وعرفته فأصبت ضميره قطعة مجهولة، من هذه المسكونة واستجليت نفسه فإذا هو أفق فوق الأرض وطالعته فكأني رايته في جملته النقطة الأرضية التي يبدأ من ورائها ارتفاع السماء، وبلوته فإذا هو حصاة تحت ضرس الدنيا والناس هنالك يمضغون، لم أملك أن غمست قلمي من نظراته في مجرى من أشعة الوحي، ووضعت الإعتبار من هذا الرجل وحقيقته ما عرفت من الناس حقائقهم، فخرجت لي من المقابلة هذه الصفحات، ولذا كان القول في المساكين ما قال" الشيخ علي".[2]

استغرب في اختلافه عن الملأ فشده ما التمس ودفعه إلى تسويد صفحات المساكين على لسان الجوهرة النادرة المهمشة في الأرض ذات الوزن الثقيل في عالم الأفق.

الفصل الثاني : التراب المتكلم أمام التراب الصامت.

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص37.

[2] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص41.

استهل الرافعي فصله بمدخل تساؤلي فلسفي قائلا:« ترى أيهما هو الصدق في حقيقته، ما نفرح به أو ما نحزن له؟ أما إن في الحياة؟ أما نادي الحياة ملحا وإن في الحياة حلوا وكلاهما نقيض، فليس منهما شيء إلا هو رد للآخر أو إعتراض فيه أو خلاق عليه، وتجدهما إثنين وهما واحد في اثنين».[1]

قصد الرافعي بعد المدخل الجميل للفصل أنه كل شيء في الحياة زائف ونقيض مهما استحليته وإستصغته فستجد في المقابل المر والحنظل من الدنيا.

هي هكذا الحياة حلو يليه مر ولا حلو دائم لا مر طائل، وما أقصر عمر الإثنين وقد صدق العلامة "ابن القيم" رحمه الله في قوله: «إن للمحن آجالاً وأعمارًا كأعمار ابن آدم لابد أن تنتهي ..».[2]

وقد تماثل قول الرافعي وابن القيم في معنى قولهما والحق أنه لا يوجد وهم أشبه بالحقيقة مثل الحياة الدنيا ولا حقيقة راسخة أشبه بالسراب كالآخرة، ولا سيما وهي في طي الغيب.

ويقول أن السرور يظهران على أنهما منفصلين ولكنهما واحد انشطرا في الإثنين كما ذكر استاذ أستاذنا الرافعي، قاصدا أن الفوق واحد مهما إختلفا وتعدد شكلها ومظهرها، ولا ينبغي للمرء أن يتعلق بالفرح كثيرا وأن لا يزهد، عليه أن يفرح وهو مدرك أن لا دوام لذلك وحتى وإن دام فهو زائل عابر وكذلك عند الشقاوة والمحن كلاهما زائل بزوال المرء والكون معاً.

[1] المصدر نفسه، ص43.

[2] إبن القيم، طريق الهجرتين وباب السعادتين.

ثم ينصرف الرافعي الذي نحسبه مفكر غير عادي إلى حقيقة الدنيا وتأطيرها في إطار يوضح لنا حقيقتها وأيضا كيف ينبغي لأي حكيم أن يتعامل مع إنزياحاتها وتقلباتها العجيبة، وقد استوقفني هذا التعبير البليغ الذي لم يسبق لنا أن تصادفنا معه عند أي مفكر قبله:« يا إلهي! ما أقواك وما أضعفنا كأنك تقذفنا من السماء فتجهر من بعد أن ترتفع إليها بأنفسنا على أجنحة الأعمال التي تطير بجاذبية مما تحب لما خلقت الإنسان عبدا على قدرك صار إلها على قدره، فيجب هو الحق أن تعذبه السماء إذا وغل عليها بلا عمل ولا ثمن! ... والعالم العظيم تركيب مخبوء في الإنسان، فالإنسان لنكده الطبيعي محيط بنواميس قاهرة تحركه، فإذا هو تورع وتحرج واستعلى أمات من شهواته فأبطل مثل ذلك فيما حوله، فكان خروجه من بعض الدنيا هو حقيقة الدنيا ومثل هذا حقيق أن يقول:« إني أحكم العالم من داخلي..!»[1] يوضح لنا الكاتب القدير والبصير بما يكتب أن أول خطوات التعايش مع أحوال الدنيا المهولة أن تجتهد لترتفع منزلة إلى السماء بمعنى أن تحظى بمكانة وسمعة مرموقة في سماء المولى عز وجل حتى الملائكة ونعرف عند معشر السماء، فالإجتهاد هو الأجنحة التي نطير بما وصل ونحلق، ثانيا من حق السماء أن تعذبه إذا وغل عليها وتطفل بلا عمل ولا اجتهاد وهو كريمها وثالثا لن يرتفع الإنسان إلى تلك المنزلة إلا إذا توزيع واستعلي وأمات الشهوات والملذات، لينال تلك الدرجة العلية أن يصبر على ما تحب نفسه وتميل إليه وتقاوم ما تكره بذلك ترتفع مكانة الإنسان.

[1] مصطفى صاد الرافعي، المساكين، ص47.

وقد اِختتم الفقرة مبينا ذلك بقوله: «... فكان خروجه بعض الدنيا هو حقيقة في بعض الدنيا ...» وهذه الجملة تعادل تفاسير تسع مجلدا أو مجلدين من شدة عمقها، وإننا لا تزايد في ذلك – فأن تدرك حقيقة الدنيا أو بعضها هو أن تتصرف عن الدنيا وما فيها، كما يقول المثل السائد بينا" المتفرج سيد المباراة" أن تبتعد عن الملعب أو الحلبة تبصر كل زواياه وتفاصيله على عكس من ينغمس فيه ويتوغل، كذلك هو حال من يؤثرون الدنيا وينغمسون فيها إنغماس المتلهف التائق للظفر بكل ما فيها، وأجمل ما فيها ترك ما فيها– لكن هيهات للمتذوق لذة الترك والتخلي وقد قيل قديما :« في التخلي التجلي»، فمتى تركت ملكت ومن ذاق عرف وقد عرف اغترف والحكيم من رأى الأمور بعين الزوال وكل من قاتل وناضل من أجل الدنيا، كأنه قاتل نفسه وحارب نفسه ولم يظفر بطمأنينة كما تمنى، وكلما ظن أنه المستراح أطل على ما يؤرقه أكثر فيبقى في ركضه وموجات التساؤل تحاصره ترى أن السعادة وحتى الراحة وإلى متى وتحت على هاته الحال؟.

يقول مصطفى صادق الرافعي: «.. أيها المقاتلون على الدنيا والإنسان إلى حين ! إن تنازع البقاء مذهب فلسفي بقري لا إنساني، فإنها الثيران هي التي تجد من القوة أن تنتطح في المجزرة، وتنسى لم هي في المجزرة».[1]

[1] مصطفى صاد الرافعي، المساكين، ص49.

وأن أشد أضرب العقلية والغباء أو ينسى المرء منا كلما وجد، وقد مثلها بتناطح البقر، ولوت أملنا حال المقاتلين من أجل الدنيا.

لوجدناهم صنوان لا اختلاف بينهما، ولو مورِست الموضوعية لكان الحكم عليهم كذلك.

ومعنى ما في الإنسانية من شر هو معنى ما في الناس من تعفن الطباع والأخلاق والمعاملة السيئة هي في الحقيقة معاملة المرء مع نفسه ثم بعد ذلك يشاركها مع الناس.

لم ينتقل بنا بوصف القبر قائلا:« واهًا لك أيها القبر ! لا تزال تقول لكل إنسان تعال، ولا تبرح كل الطرق تفضي إليك يقطع بأحد دونك ... وعندك وحدك المساواة، فما أنزلوا قط فيك ملكا عظامه من ذهب، ولا بطلا عضلاته من حديد، ولا أمير جلده من ديباج ولا وزيرا وجهه من حجر، ولى غنيا جوفه خزانة، ولا فقيرا علقت في أحشائه مخلاة!»[1].

بين لنا الكاتب أن وراء كل ما هو مدبج في هذه الحياة أو ماهو متحجب بحجاب الشقاوة آخره القبر، هو المستقر الأخير لكل واحد هو آخر المحطات، فلم كل هذا الصراع ؟ والآن أردت أن الإنزياح إلى طرف أخر أو الجانب المقابل وهو ليس هذا يعني أن الإنسان يبقى مشابكا يديه منزويا في قبو منتظرا الموت، والحق أننا خلقنا لمهمة في هذه الحياة والدين الإسلامي دين أسباب وتكليف وعمل، بيد أن ما قصده

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص50.

مصطفى صادق الرافعي هو ذلك التعلق المرضي المقيت بالدنيا وزخرفها وأنه مهما طال متاعها فإنه زائل لا محالة.

وينبغي للحكيم أن يوازي بين هاته وتلك حتى لا يتضرر من الجانبين وأن لا يضع نصب عينيه الظفر بالدنيا وملذاتها، كما بين في شق آخر "ليس الفقير كما يخال الناس بل هو أزكى مما يظهر به في أعين الناس، فالجوهر هو الميزان الحقيقي لكل إنسان وأن المولى يتعامل مع الجوهر، ولم يخلق نفسا واحدة عبثا، كل بمهمته ودوره في دنيا الله.

الفقير غني تلك فلسفة لا يفقهها الكثيرون، بل أكثر الناس الفقير غني باستغنائه وإنصرافه كما يذهله ويدهشه، وكما ذكرنا أيضا قد تكون محاطا بالثروة ولكنك فقير في قلبك – كما أشار الحسن البصري. إن الفقير الزاهد أدرك مجمل هذه الحياة، فإكتفى بما يسد رمقه وانشتغل بما يملأ صحيفته ويثقل ميزانه، وقد يكون فقيرا لكن الدنيا تملأ قلبه ويطمح للظفر بها ليلى نهار، ولم يحظى من الفقر إلا بمظهره، أما في زهده فيها فهو متعطش لها في سريرته أكثر من أولئك الذين أعلنوا الحرب من أجل الدنيا وملذاتها – الغنى محله القلب ولا مكان غير ذلك.

-اختتم الفصل الكاتب مسائلة نفسه قائلا:« أذلك سحر الحياة فينا أم سوء استعدادنا لها، أم شراهة الجسم من لذة الحياة بإبتلاع كل ما في الكون منها، أم حماقة الكأس التي تريد أن يغترف البحر لتكون له شاطئين من الزجاج، أم بلاهة الإنسان الذي يريد أن يطوي فيه معنى الخالق ليكون إله نفسه».[1]

تساءل الرافعي عن لغز هذه الشراهة اتجاه الحياة واندافاعنا نحوها أم سحرها اللامتناهي، أم سوء استعدادنا لها، والحق سوء استعدادنا لها هو ما يجعلنا منبهرين أمامها ويزيد من سحرها علينا ولوتأملنا المستعدين لها والزاهدين فيها لوجدناهم يتصرفون في الحياة ولا تتصرف فيهم ولا تقول أنهم لا ينثون أمامها طيلة الحياة ولكن الإنزلاق فيها يكون طفيفا وأقل ضرر كحال العارفين لا يهتمون لذلك كثيرا، والحق أن دار الدنيا هي لعبة أو بمعنى أكبر وأقرب إلى الاستيعاب هي مسرحية أو أشبه بذلك، ألم ترى لها سيناريوهات فيها بداية وعرضا خاتمة، فلما على الممثل في المسرحية أن يتقمص دوره بجدية وكأنه خالد في المسرحية ولا خروج منها.

متى أدرك الممثل أني مسرحية سيتقن دوره على أنه في مسرحية إذ لا يمكن قتل شخصية مباشرة كأنه في الحقيقة أو طعنه بخنجر.

سيتم التحايل لإيصال المشهد للمتفرج، دون الخروج عن نطاق ما دور في أحداث اللعبة وقس على ذلك في أمور الدنيا وشهواتها ومزالقها.

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص52.

الفصل الثالث: الفقر والفقير

يقول الإنسان: ماهي الروح التي تعطي الحياة؟ وتقول آماله: ما هو الموت الذي يستلب هذه الحياة ؟ وتقول أطماعه: وماهو الفقر الذي يجمع على الروح بين الموت والحياة ؟.[1]

تساؤلات كثيرة لا تنتهي مدام الإنسان يدب فوق الأرض؛ واي إنسان الله ذلك الذي يتحرك فيه جوهر الإنسانية وضميره مستيقظ لأنه كما نعلم ليس كل إنسان، فقد تكون تحمل إسم إنسان وأنت مجرد كتلة من اللحم لها أرجل تتحرك بها وفقط، وأنت بعيد عن منزلة الإنسان بعد المشرق عن المغرب وهنا يحضرني قول ميخائيل نعيمة في هذا الصدد يقول:« ما أكثر الناس، وما أندر الإنسان».

والحق أن الإنسان نادر في زمن اليوم، للعصرنة والحداثة مساوئ كثيرة ومن أبرزها- سلبت جوهر الإنسان منه – وتلك هي البوصلة التي يسير بها ويفرز إتجاهاته في الحياة ولو نزعت محرك السيارة ووضعتها في منحدر ستسير، لكن مآلها الارتطام والاصطدام عند نهاية المسار.

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص 53.

قد تكون عقبات في الحياة لكل واحد منا تعرقل المسير ظرفيًا، لكن توقفه نهائيا، فمتى رأيت إنسانا توقف مباشرة فأعلم أن تسيره كان من دون بوصلة وكم من إنسان يعيش بيننا تحسبه متحرك – والحقيقة أنه متوقف ولا تتحرك فيه سوى أطرافه.

مثله كمثل حيوان يسعى للحفاظ على البقاء وحسب – همه منذ بزوغ الشمس على النافذة عرفته حتى إنصرافه هو لقمة عيشه – أن يبقى متحركا لا نقول حيا فالحي ليس وله قلبه نابض فقط إنما الحي من له ما يملأه في دنياه حتى يجد الثمرة في أخراه، ذلك هو حي، أما عن الأول فهو ميت ولا يتحرك فيه سوى أطرافه، وتلك هي المأساة والمأتم الأكبر.

(الفقر، ما الفقر؟ ومن الفقير حقا وهل كل غنيٍ غنيٌ حقًا؟).

يقول مصطفى الرافعي في هذه الجزئية:« كذلك نتساءل: ماهو الفقر؟ على أنه ما غير الفقر ذلك السؤال الذي تجد في كل نفس إنسانية معنى من جوابه، ولا غير الفقر ذلك القبر المعنوي الذي لم يخلق الله نفسا من النفوس إلا ولها ميت من أمل في ترابه بلا، وإذا كان في لغات الأفواه لفظ خالد فإنما هو الفقر».[1]

– يشير إلى أن دلالات الفقر متعددة وكل حسب نفسه يفهمه ويفسره أيضا تعدد مفاهيمه من واحد لآخر، وكذا يتعدد التعايش معه من إنسان لآخر هي فلسفة – فلسفة الفقر– كل حججه تجاهها وتأويلاته

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص 53.

وتفاسيره، ومن التفسير ينبثق التعامل مع ما تجسد أمامك من احتياج أو عوز أو حاجة أو استغناء، كل كيف يسمى ذلك.

والمشكلة دائما في التأويل وقد ذكر يوما الكاتب نجيب الكيلاني قائلاً : " كانت المشكلة دائما في التفسير".[1]

يقول الرافعي عن شيخه وهو كقطعة من الأبدي لا أمس له يتعقبه ولا غدا يترقبه كأنه يعيش في اللازمن، إذ لا يعنيه ذلك كله، هو مخلوق آني، آدم اللحظة.

كذلك يقول الحياة هذه ملح وحلو أو سكر، يا ترى أيهما الكذب في نفسه الموت أم الحياة، وان لا أحد في هذا الكون إلا وله ذهنية وجود كون الآخر وكون غيبي، وان الناس كالأرقام تتخطى على الأرض ثم تقول العاطفة اجمع واطرحي وحلي المسألة، ولعمري أن مثل هذه الفلسفة لا يدركما مفكر عادي عابر وسطحي على تجليات الفقر والمجتمع.[2]

ويمكن أن يكون سبب الموت أنك لا تلتقي بإنسان يعيش في حقيقته الإنسانية، وهذا أكبر مأتم متى تجرد الإنسان من إنسانيته متلكماً عن الإيمان، إن يقول أن الإيمان قوة جبارة لا تجتمع إلا من أراد أن يجمع كل أطراف النفس منتشرة إلى عقيدتها الروحية وحبسها لأكثر حواسها، في حصن واحد عتيق ومؤلم، والحية

[1] نجيب كيلاني، عمالقة الشمال، ص 08.

[2] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص50.

على هذه الأرض وهو القبر الإنساني وليس الجسم الإنساني، ويقول : يا هم من يحس ويعرف ويرى كيف يموت العزيز وكيف يتحول من يحبه إلى ذكرى ويضرب مثالا على ذلك مثالا قائلا:" روح تقيم التقييم الأرضي في ذراع الفريق الذي يجاهد لينجو ويذهب النعيم الأزلي في ذراع الحي الذي يجاهد كيف يفوز".[1]

يحاول الرافعي تجسيد تلك الحالة التي يمر بها المرء حين يفقد عزيزا، ويذكر حال الفريق وهو يصارع من أجل البقاء رغم علمه بأن الحياة الأزلية والأبدية فيها من رغد مما يتمسك به".

ويقول أيضا بأن الفقير في أي عصر من العصور وهو الخلل أوجهة منه في النظام الاجتماعي الإنساني كذلك، البخل هو جهة من الخلل في نظام الإنسانية، ولا تتهيأ الموازنة الاجتماعية إلا لما تتبع قوى المجموع وتَنْدقُ في تيار واحد لجهة معينة.

وهنا يعرج بنا الكاتب إلى جزئية مهمة هو أن المجموع والإتحاد يجعل الخلل غير ظاهر ولا مضر في نفس الوقت بالنظام الاجتماعي إلا أن اِلتفات الأغنياء للفقراء هو ذروة المجتمع الإسلامي وكل المجتمعات، فهم الأساس في سد الخلل والتسيير على وتيرة عادية مفيد ومستفيد وهذا هو ناموس الكون كلٌ يرعى من الآخر وكل خلق من أجل غيره فالشمس تحرق لأجل البشر والنبات غذاء الحيوان، والحيوان غذاء الإنسان، والكون كله حركة الإنس والجن، هي هكذا كلٌ في خدمة غيره.[2]

[1] المصدر نفسه، ص52.

[2] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص52.

لكن الموازنة الفردية لا تستقيم إلا لما تأتي من العكس الجهة هذه يعني أن الإنسان لا يعيش فردا، لكنه يموت فردا ويبقى أفقر الفقراء من لا يجد غذاء الشعور، وليس من لا يجد الغذاء بطنه، الفقير فقير الشعور والإنسانية، أما البطون فممتلئة لا محالة بما طاب أولم يطب. أما خواء الروح والجوهر فماذا سيملأه؟ تلك المعضلة الكبرى.[1]

وما أكثر من اِمتلأ بطنه اليوم وفرغ عقله وجوهره، والبشرية اليوم بحاجة ماسة إلى من يجمع ويوازن بين الشتاتين والحق لا ننحاز إلى جهة واحدة فكلاهما يكمل الآخر فجوع البطن وجواء الجوهر كلاهما نقمة على صاحبه واِمتلاء البطن وحده دون قيم إنسانية خطر على الإنسانية جمعاء، ووجود القيم مع الفقر المدقع قد تطول الظروف وتدفع بصاحبها إلى الجهل والكفر والتخلي عن كل القيم المتجذرة فإذا بك تجده يقول:" ما أفادتني هذه القيم، هل أروت ضمئي؟ وهل سدت رمقي؟ وهل حولتني من الهامش إلى الطريق العادي يسير فيها كل الناس؟ اين أنا منهم كل هذه التساؤلات عواصف تهاجم صاحبها البائس الفقير ولا يرد بأسه ولا يتصدى لهذه العواصف إلا الحصن الوحيد الذي أشار إليه سلفا هو حصن الإيمان العتيد. وبذلك يكون المؤمن قد إنتصر على أعتى عدو في الحياة–الفقر– الذي أرق النفوس البشرية وكل هارب منه على قدر ما استطاع الفرار منه.

الفصل الرابع: مسكينة! مسكينة !

[1] المصدر نفسه، ص57.

المسكينة هذه البنت وصلت إلى أقصى درجات الفقر إلى أن قررت أن تنتحر، ذهبت هذه البنت إلى بنت غنية جدا وطلبت منها وتوسلت إليها أن تشتغل عندها عاملة، لكن البنت الغنية رفضت ذلك.

وترددت :«مسكينة-مسكينة» .

رجعت تلك البنت تجر ذيول الخيبات لتمر الأيام تلتقي البنت الفقيرة ببنت غنية في شكل وحالة الفقر المدقع، ذهب الغنى والمال والثراء-ففوجئت الفقيرة بحالها وقالت بنفس النبرة مسكينة- مسكينة.[1]

يغوص بنا الكاتب صادق الرافعي إلى ركن مهم وهو أن الأحول في تغير مستمر والتحول ولا دوام لأمر وكل شيء مهدد بالزوال، وأيضا على الواحد منا أن لا يغتر لأنه لا يدري ما تدس له الأقدار وعلى ماذا قد يطل-فقد تخبأ لك الأيام الدور الذي ظننت يوما انك متنائيا عنه بُعدَ الشرق عن الغرب فإذا بك مصاب به وتعيشه في لمح البصر، فهنا ينبهنا أيضا بأن يكون المرء مستعدا لمثل هذه الأحوال، يستكبر المرء ويحسب نفسه غير نازل كرسي الملك فإذا به ينزل منه وهو في أمس الحاجة لمن قزمهم يوما واستسغرهم.[2]

العدالة الإلهية لا تعرف عاطفة، وكل ساق سيسقى بما سقى وكل متجرع من الكأس نفسها.

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص70.

[2] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص 71.

كما يقول الإمام ابن القيم:" الغني هو أمانة الله لعباده متى أراد اِنتزع منه تلك الأمانة، فلما كل ذلك الجزع؟" الأمر كشخص قرضك مبلغا من المال، ولما انقضت المدة التي كان له أن يسترجع ماله أخذه منك ولله المثل الأعلى في خلقه.[1]

لكن من يفقه قولا كهذا وهو قد تذوق طعم الغني والرفاهية وليس من ذاق كمن لم يذق.

هي أثقل بكثير على الإنسان تعود على الغني وتربع كرسي الثراء والجاه والسلطان والمال. فإذا به يتدرج بين جدران الفقر والعوز ولذا ورد في الأثر:" إرحموا عزيز قوم ذل" ثم يقول:"يوجد أشقى من الذي يمنع السعادة وأعطى رغبة فيها إلا الذي أعطى السعادة ومنع من اللذة منها".[2]

يعني أشقى درجات الشعور أن تمنع السعادة وتعطى الرغبة، وكأنك تائقٌ إلى ما منعت منه، كأنك بسجين فكرة تتوق للسعادة وأنت محروم من ذلك هو السجن الحقيقي.

كذلك هو حق الفقير تائق إلى للغنى وهو غارق إلى الذقن في نهر الفقر كالجزيرة يحيط بها الماء من كل جهة كذلك هو حال الفقير ثم ينتقل ليخبرنا أن لا يحب الدنيا إلا من يخاف عليها وأول من يخاف عليها يصبح خائفا منها ومن ثم يشقى بها ويشقى لها، ولكن أشقى الناس الذي يتوقع الشقاء وهولا يعرف من حاضره ما الله صانع به، ومن لا مستقبله ما الله قاض به فيه.[3]

---

[1] شمس الدين ابن القيم الجوزية، طريق الهجرتين باب السعادتين، ص34.

[2] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص73.

[3] مصطفى صادق الرافعي، المساكين ، ص75.

ويبين الرافعي أن أشقى في زاوية أخرى من هذا الفصل أن الشقي الحقيقي في هذه الحياة صاحب النظرة التشاؤمية للمستقبل والحياة وهو على الدوام يائس متشائم.

ووجدته دائما، متلذذ بحزنه وبؤسه ولا يود تغيير حاله إلى الأفضل ولا يسعى لذلك أصلا فتراه، مصفرا منطويا على شقائه معاديا لكل الناس، كأنهم سبب شقائه وتعاسته.

وذلك ضرب أخر من أضرب الفقر إن لم نقل أشد أضرب الفقر على المرء.

فالتشاؤم هو فقر من نوع آخر فقر العقل من تفاؤل وطموح نحو الأفضل.

التشاؤم يسجن ويغلق على صاحبة وعبارة عن سجن جدرانه من أفكاره، إذن فالفقر والتشاؤم فكرتان متوازيتان تسيران معا فمتى حطمت الفكرة تلك كنت حرا طليقا، ووجدت في صلح واسعا من حرية وأمل والغنى، والحق أن الحرية والأمل هما عين الغني.

يقول أحد العارفين المتقدمين:« متى أدركت حكمة المنع فذلك عين العطاء».

الفصل الخامس: لؤم المال وهم التعاسة

يقول الكاتب في هذا الفصل: نجد الكريم حينما يضجر فينفق ويصرف، أما اللئيم حينما يضجر ويمسك ويبخل، لكن الإنسان يجد أن لذتهما في ذلك فالكريم متى أنفق أحس بلذة ومتعة، وأما اللئيم أو البخيل فلذته ومتعته في الإمساك.[1]

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص58.

وكما ذكر ذلك الجاحظ في كتاب البخلاء قائلا:" لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو حال، فسلم إلي المال، وادعني بأي اسم شئت. قلت : ولا يقال أيضا فلان سخي، إلا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الإسم الحمد والمال، واسم البخل يجمع المال والذم، فقد اِخترت أخسهما و أوضعهما".[1]

فالجاحظ يبين مدى لذة البخيل حينما يدعى بالبخيل المهم أنه له مالا وقد قال البخيل- سلم إلي مال وادعني بما شئت-مهتم أن في حوزته مالا. وتلك لذته التي تغنيه عن كل ما يقال فيه.

لم يبرر البخيل بحذاقة بخله:"في قولهم البخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم سخي إخبار عن خروج المال من ملكه".[2]

تلك لذة من نوع أخر وتلذذ بها اللئيم أو البخيل في حين يراه الناس على غير ما يرى نفسه وهو أمس الحاجة للاِستمتاع بما يشتهي من ملذات الدنيا، لكن شهوة البخل واِكتناز المال تغنيه عن كل الشهوات إذا فكلاهما يتلذذ بما يمارس، السخي والبخيل كما ذكر الرافعي وهذا فيه إشارة أن مصطفى صادق الرافعي له نفس التوجه الفكري الذي خاض فيه الأولون فقد اِلتمس في هذا الفصل تطابق فكرتين مختلفتان في السياق، موحدتان في النسق.

[1] عمروبن محبوب الجاحظ، كتاب البخلاء، دار الكتاب العربي، بيروت، د.س.ن، ص139.

[2] عمروبن محبوب الجاحظ، كتاب البخلاء، المصدر السابق، ص 139.

الفكرة الواحد ولكن كل واحد منهما درسها وعالجها بطريقته والتحصيل الأخير نفسه أو النتيجة فقد نقب كل منهما في نفسية البخيل والكريم فتوصلا إلى النتيجة نفسها وهي أن كلاهما يتلذذ بما يمارسه. إذ هو مؤمن به –إذا فهو يتمتع به وواجد للحجج يدافع بها عن بخله ولؤمه، حتى يكاد يقنعك أن ما يتلذذ به أجدر بالمذاق والتجربة.

الفصل السادس: وهم الحياة والسعادة.

يقول الرافعي في هذا الفصل:" نحن عرفنا الحياة لأننا نحن أمثلة عليها ولكن البحث في المعنى هذه الحياة لم ينته بعد لأن هذا المعنى لا يزال كما هو، كما كان فوق السموات...وليس وراء النفس الإنسانية إلا الذي وهو وراء السماء، ولا وراء السماء إلا الذي هو وراء النفس..؟".[1]

تبين له أتمنى الحياة لأننا وجهها نعيش ونتعايش أما عن معناها لم ندركه بعد ومعناها الحقيقي لا يزال فوق السموات، ويربطه معنى الحياة بالنفس الإنسانية وأن ما وراء السماء هو ماوراء النفس هما صنوان.

ثم يقول لم يغال الناس في شيء كمغالاتهم في قيمة الحياة، فمثلا ما يتعلق بالسعادة أولها حب النفس وآخرها بغض الناس، وهي مقدمتها منازعة الفرد للمجموع ومنازعة المجموع للفرد، وبذلك يفقد أكثر

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص98.

الناس طعم السعادة من كثرة ما يسعدون لها ويسعون وراءها سعيا حثيثا مبالغا فيه، ويغرقون في وسائلها حتى يلاقونها.[1]

وفي المقابل هناك من عزف عن هذه الأمور والجري وراءها فإذا به عند ضالته وبغيته فمعظم الأشياء ننالها بالزهد فيها وليس بالجري وراءها اللهم إن هنالك مجال لتقديم الأسباب أما ذلك التعلق المرضي والوهمي بالسعادة وأمور الدنيا فهي سجن يجد المرء نفسه ينتقل من زاوية يفسر لنا الحياة- ولو أننا دورنا على معناها لوجدنا —مدة- والمدة هاته ضائعة لولا العمل والإنشغال والعمل على مقدار المنفعة والمنفعة بآثارها والآثار هذه هي تاريخ الحياة.[2]

فالحياة إذا ومعناها الحقيقي هي مدة يجب الإشتغال فيها لصنع أثر والأثر هذا الذي نبقيه هو صانع التاريخ والتاريخ ليس إلا سلسلة تدور.

إن من يقرأ التاريخ ويغوص في أكنافه يعيش الحاضر والمستقبل في هدوء وطمأنينة عجيبتين.

والحق أن الحاضر والمستقبل ليسا سوى تاريخ معاد بلون وشكل جديدين إنه لن يتصرف بروح المندهش المكتشف لأمر حديث الإنبثاق ذلك الذي يغوص في غيابات التاريخ وأروقته، وهو صنوان فرقهما الزمكان فقط.

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين،ص99.
[2] المصدر نفسه، ص100.

وليس له الحق في الاستشراف سوى ذلك الذي نقب في التاريخ وتمعن وقلب صفحاته- التاريخيون وحدهم من فهموا عجلة التاريخ الدائرة ويتأملونها من غير اندهاش مخبريننا بما ساد وما قد يسود في الناموس الكوني منذ الأزل حتى ينفخ في الصُورْ.[1]

وما الحياة إلا تاريخ معاد – فالعاقل من تأمل التاريخ وعاش بحكمة غير آبه بما قد يصادف حاضره من حاضره ومستقبله في قالب جديد.

الفصل السابع: سحق اللؤلؤة.

يقول الغاية من الحياة هي كمال الحق في جسمه ونفسه، يعني إذْ تم بالفقد فذلك عين الغنى وإن نقص بالغنى فقره لا مراء في ذلك، فمتى اكتملت النفس واكتمل الجسم فذلك الغنى الحقيقي.[2]

ثم يذكر رجلا كبيرا بخيلا إلى النخاع بلغ به الأمر من اِكتناز المال حتى تزوج كبيرا من فتاة بعدما وقع في حبها وكان كدس ما لا يعد ولا يحصى من المال-الفتاة لويز هذه تزوجها ظنا منه أنه سيسعد معها، فتركها تتصرف في كل ماله وتصرفه إلى أن اِنتهى به الأمر وباع قصره، فعاش تعاسة لا في الأول ولا في الآخر ولم يستفد مما كدس بل كان ذلك المال عليه نقمة، واِنتهى به الحال إلى الجنون.

[2] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص117.

لقد تقصد الرافعي الإِستشهاد بقصة كهذه ليسير إلى مغزى عميق وهو أن المرء أسير لشهوته عبد لهواه، فلا هو استفاد مما جمع ولا أفاد الناس من حوليه، وبذلك يكون قد دعا إلى أول نقطة إِبتدأ منها وهي درهم على درهم، بلكن أنا له أن يجمع الثروة من جديدة وهو جن.

ثم إختتم بقول الرجل عن الفقر: الفقر خلو من المال، ولكن أقبح من الفقر الخلو من العافية.[1]

ثم يقول في آخر سطر من الفصل على لسان لويز طليقته:" والغنى أن تملك من الدني، ولكن أحسن الغنى أتهنأ في الدنيا".[2]

الفصل الثامن: الجمال والحب

يقول في فصله هذا :" وكأنما أنظر الآن في قلب رجل لا في وجهه، إذا تهلل على السحاب وجه " الشيخ علي" شيخ المساكين.

أراه كما كنت أعرفه، ضاحكا غير الضحك الذي يلبس وجوه الناس، فلا يضحك لشيء إنساني، بل ما هو إلا أن تراه قد تهلل فرفع وجهه إلى السماء وأرسله من فمه مثل نور التسبيح في إشراق جميل حتى لقد كان يخيل حين أبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحك ولكن قلبه يرتعش بعضلات وجهه.[3]

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص 157.
[2] المصدر نفسه، ص 157.
[3] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص199.

قد أبهرني الرافعي في هاته السطور وفي وصفه الشيخ علي وكيف حياة مختلفة كان الشيخ علي محور القصة ولا يزال، ضحك الشيخ علي متعلق بالسماء فلا يسعده ولا يضحكه إلا من أتى منها ما دون ذلك ليس فيه مدعاة للضحك أو التبسم أو بمفهوم أدق لا يدعو إلى الفرح.

يفرح حين يرتفع رأسه إلى السماء فيتهلل بالتسبيح كان له خطابا خاصا مع الرحمن- ثم يقول كأني بقلبه أراه يرتعش بعضلات وجهه أي انه يضحك من قلبه حبا وتهلهلا واندفاعا نحو السماء التي هي موطنه الأصلي والأبدي.

الفصل التاسع: الدين ولادة ثانية

يقول صاحب المساكين أن واحد من الناس لا أثق أبدا في بني أدم متخلف ليس له دين ولا بفيلسوف ملحد ولا بمصلح ينسلخ عن دينه، لأن كل هؤلاء صحيح في ذاته وفاسد في موضعه وأغراضه، ويقول أن الطبيعة نفسها تهيأ الإنسان للدين بأسلوب غريب، هذا هو الحي الذي يخلق فطرة على الأنواع مختلفة ومتعددة لذلك الفطرة لا تخلو من أحد.[1]

من تجرد من دينه كمن ضاعت بوصلته فهو مع نفسه تائه فكيف لي أن أثق به وأكون عشيرًا أو حتى أصدق موضوعاته وأكون مصدقا لما يطرحه.

[1] المصدر نفسه، ص190.

ثم يقول:" وبهذا كان واجبا حتما أن أكون العقوبة جزءا من نعيم الدين وان يكون القيد شقا من حرية العقيدة وإلا بطلت الإيمان قوتا الجذب والدفع معا ببطلان إحداهما.[1]

فللعقوبة دور بارز في العقيدة فهي تحفظ التوازن في هذا وله ومن ثم تنضبط النفس الإنسانية ولا تندفع بحيوانيتها بل تتيقظ الفطرة من حين لآخر، التي يحركها الإيمان فالمبادئ والقيم، إذ لا يوجد إيمان بلا قيم ولا مبادئ، تطمس الغريزة الحيوانية أما الثلاثي المتواجد في كل نفس بشرية.

مختتما كتابه الرافعي المرصع بالإنسانية وجوهرها قائلا:" فالمصلحون الذين يحاولون تجديد الأمم بصور ملونة من الغرائز تطمس على الدين، هم الذين يرجعون بهذه الأمم في عالية الأمر إلى الحيوانية، لأنه ليس في طبيعة النفس إلا شيئان: هوى هي دائما أعظم منه وإيمان هو دائما أعظم منها".[2]

يفسر لنا ويبين أن سبب تراجع الأمم هو اِدعائهم بالتقديم المزيف الذي يخلو من الدين حيث يرون أن الدين هو سبب رجوع الأمم إلى الخلف والحق أنه وقودها وسبب بروزها ولو تأملنا الحضارة الأندلسية لوجدنا أنها برزت وعلت وسمت بالدين والعلم وتبقى الحضارة الأندلسية المعيار الأول للأمم العربية الإسلامية في حاضرها ومستقبلها فالإيمان هو المحور دائما في نفس الإنسان.

[1] مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص201.
[2] المصدر نفسه، ص200.

الخاتمة

خاتمة:

لقد إنتهت رحلة بحثنا بعد مرورنا بالعديد من الكتب النقدية والفكرية وكتب مصطفى صادق الرافعي خاصة توصلنا إلى النتائج التالية:

– أن كل دسيسة للعربية وآدابها هي بالضرورة دسيسة للقرآن الكريم والدين الإسلامي كما ذكر مصطفى صادق الرافعي في بداية كتابه " تحت راية القرآن".

– أنه لا جديد من دون القديم، فالجديد يجب أن يبنى على أساسات القديم.

– بروز الوعي المحافظ في كل أعمال مصطفى صادق الرافعي وإعتباره بان الموروث العربي كنز لا ينبغي التخلي عنه.

– الإشتغال على الجانب الإنساني، وأن الإنسانية شيء مقدس أي يقاس المرء بإنسانيته لا بما يملك.

–فلسفة الفقر عند مصطفى صادق الرافعي تتمثل في الإستغناء والترك وليس أمرا سليبا بالكلية، فهو يعتبر الفقر غنىً بقدر التخلي عن الأشياء وعدم الركض وراءها وذلك عين الغنى.

وفي الأخير نتمنى أن نكون قد وفقنا في دراسة هذا الموضوع وقد أضفنا فتحنا أفاقاً جديدة للباحثين وإثراء المكتبة النقدية العربية.

الملحق رقم (01):

مصطفى صادق الرافعي (1298– 1356 هـ/ 1880– 1937م)

أديب مصري كبير، لقِّب بمعجزة الأدب العربي، وبشيخ أدباء العربية، ينتمي إلى مدرسة المحافظين وهي مدرسة شعرية تابعة للشعر الكلاسيكي.

تولى والده منصب القضاء الشرعي في كثير من أقاليم مصر، وكان آخر عمل له هو رئاسة محكمة طنطا الشرعية. أما والدة الرافعي فكانت سورية الأصل كأبيه وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجرًا تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، وكانت إقامته في بهتيم من قرى محافظة القليوبية.

مولده ونشأته:

ولد مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي العمري في يناير سنة 1880م، في بيت جدِّه لأمِّه في قرية بهتيم بمحافظة القليوبية وعاش حياته في طنطا. يعود نسبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب. دخل الرافعي المدرسة الابتدائية في دمنهور حيث كان والده قاضيًا بها، وحصل على الشهادة الابتدائية بتفوق ثم أصيب بمرض يقال إنه التيفوئيد أقعده عدة شهور في سريره وخرج من هذا المرض مصابًا في أذنيه، واشتد به المرض حتى فقد سمعه تمامًا في الثلاثين من عمره. لم يحصل الرافعي في تعليمه النظامي على أكثر من الشهادة الابتدائية، مثله مثل العقاد في تعليمه، فكلاهما لم يحصل على غير الشهادة الابتدائية. وعلى فقده السمع كان الرافعي من أصحاب الإرادة الحازمة القوية فلم يعبأ بالعقبات، وإنما اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجد والاجتهاد، وتعلم على يد والده وكان أكثر عمل عائلته في القضاء.

لم يستمر الرافعي طويلا في ميدان الشعر، فقد انصرف عنه إلى الكتابة النثرية لأنه وجدها أطوع. وأمام ظاهرة انصرافه عن الشعر، يتبين أنه كان على حق في هذا الموقف؛ فعلى الرغم مما أنجزه في هذا الميدان الأدبي من نجاح، ورغم أنه استطاع أن يلفت الأنظار، إلا أنه في الواقع لم يكن يستطيع أن يتجاوز المكانة التي وصل إليها الشعراء الكبار في عصره، وخاصة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، فقد عبر هذان الشاعران عن مشاعر الناس وهمومهم في هذا الجيل.

ولعل الرافعي هو من أطلق أول صرخة اعتراض على الشعر العربي التقليدي في أدبنا، فقد كان يقول: «إن في الشعر العربي قيودًا لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه» وهذه القيود هي الوزن والقافية. كانت وقفة الرافعي ضد قيود الشعر التقليدية أخطر وأول وقفة عرفها الأدب العربي في تاريخه الطويل، وأهمية هذه الوقفة أنها كانت في حوالي سنة 1910 وقبل ظهور معظم الدعوات الأدبية الأخرى التي دعت إلى تحرير الشعر العربي جزئيًا أو كليًا من الوزن والقافية.

مؤلفاته:

1. **ديوان الرافعي**: (ثلاثة أجزاء) صدرت طبعته الأولى بين سنتي 1903 و1906. وقدم لكل جزء منها بمقدمة في معاني الشعر تدل على مذهبه ونهجه، وهي مذيلة بشرح يُنسب إلى أخيه محمد كامل الرافعي وإنما هي من إنشاء الرافعي.
2. **ديوان النظرات**: (شعر) صدرت طبعته الأولى عام 1908م.
3. **ملكة الإنشاء**: كتاب مدرسي يحتوي على نماذج أدبية من إنشائه، أعدّ أكثر موضوعاته وتهيأ لإصداره في سنة 1907، ونشر منه بعض النماذج في ديوان النظرات، ثم صرفته شؤون ما عن تنفيذ فكرته فأغفله، وقد ضاعت أصوله فلم يبقَ إلا النماذج المنشورة منه في ديوان النظرات.
4. **تاريخ آداب العرب**: (ثلاثة أجزاء) صدرت طبعته الأولى في جزاين عام 1329 هـ، 1911م. وصدر الجزء الثالث بعد وفاته بتحقيق محمد سعيد العريان وذلك عام 1359 هـ الموافق لعام 1940م. يراه أكثر الأدباء كتاب الرافعي الذي لا يعرفونه إلا به.
5. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**: (وهو الجزء الثاني من كتابه تاريخ آداب العرب)، وقد صدرت طبعته الأولى باسم إعجاز القرآن والبلاغة النبوية عام 1928م.
6. **حديث القمر**: أول ما أصدر الرافعي في أدب الإنشاء، وهو أسلوب رمزي في الحب تغلب عليه الصنعة، أنشأه بعد رحلته إلى لبنان في سنة 1912 حيث التقى لأول مرة بالآنسة الأديبة ماري يني فكان بينهما ما كان.

7. **المساكين**: سطور في بعض المعاني الإنسانية ألهمه إياها بعض ما كان في مصر من أثر الحرب العامة، صدرت طبعته الأولى عام 1917م.
8. **نشيد سعد باشا زغلول**: كتيّب صغير عن نشيده (اسلمي يا مصر) الذي أهداه إلى سعد زغلول في سنة 1923، طبع في المكتبة السلفية بالقاهرة؛ وأكثر ما في الكتاب من المقالات هو من إنشاء الرافعي أو إملائه.
9. **تحت راية القرآن**: مقالات الأدب العربي في الجامعة، والرد على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين. صدر في سنة 1926.
10. **على السفود**: وهو رد على عباس محمود العقاد، نشرته مجلة العصور في عهد منشئها الأول الأستاذ إسماعيل مظهر، ولم تذكر اسم مؤلفه ورمزت إليه بكلمة: إمام من أئمة الأدب العربي.
11. **أوراق الورد**: الجزء الأخير من قصة حبه، يقوم على رسائل في فلسفة الجمال والحب أنشأها ليصور حالاً من حاله فيما كان بينه وبين فلانة، ومما كان بينه وبين صديقته الأولى صاحبة حديث القمر.
12. **رسالة الحج**: أنشأه في صيف سنة 1935، استجابة لرأي صديقه حافظ عامر وإليه نسب!
13. **وحي القلم (ثلاثة أجزاء)** وهو مجموعة فصول ومقالات وقصص كتب المؤلف أكثره لمجلة الرسالة القاهرية بين عامي 1934- 1937م. طبع منه جزان في حياته، ثم أعيد طبعه مع الجزء الثالث أكثر من مرة بعد موته. وفيها:
   - ❖ اليمامتان.
   - ❖ الطفولتان.
   - ❖ في الربيع الأزرق.
14. **رسائل الرافعي**: وهي مجموعة رسائل خاصة كان يبعث بها إلى محمود أبي رية، وقد اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما.
15. **السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية**: وهو بحث نفيس أنشأه الرافعي جابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق؛ لتنشره في ذكرى المولد النبوي سنة 1352 هـ. وهو منشور

بتحقيق خلف، وقد قال في مقدمة تحقيقه عن هذا البحث : ((هو خليق بأن يصل ليد كل عربي قارئ، ومَقْمَنَةٌ لأن يُتلى على كل أمي عابئ)).

وفاته:

في يوم الاثنين 29 صفر 1356 هـ الموافق 10 مايو 1937 م استيقظ الرافعي لصلاة الفجر، ثم جلس يتلو القرآن، فشعر بحرقة في معدته، تناول لها دواء، ثم عاد إلى مصلاه، ومضت ساعة، ثم نهض وسار، فلما كان بالبهو سقط على الأرض، ولما هب له أهل الدار وجدوه قد أسلم الروح، وحُمل جثمانه ودفن بعد صلاة الظهر إلى جوار أبويه في مقبرة العائلة في طنطا. توفي مصطفى صادق الرافعي عن عمر يناهز 57 عاماً.

قـائمة المـصادر والمـراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

السنة النبوية

الكتب:

1. أبوريه محمود، رسائل الرافعي. مقال من كلام من مختارات الجاحظ.
2. الجاحظ، عمروبن محبوب، كتاب البخلاء، دار الكتاب العربي، بيروت، د.س.ن.
3. ابن القيم الجوزية، شمس الدين، طريق الهجرتين باب السعادتين، مجلد الأول، تح: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، 2008.
4. الرافعي، مصطفى صادق، تحت راية القرآن، دار المصابرة، مصر، 2014.
5. الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، مراجعة درويش الجويدي،ج2، المكتبة العصرية، بيروت، 2004.
6. العريان، سعيد، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.س.ن.
7. الرافعي، مصطفى صادق ، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، لبنان، 2000،
8. المقالح، عبد العزيز، عمالقة عند مطلع القرن العشرين، منشورات دار الآداب، بيروت، 1988.

مقالات:

1. جاسم محمد، باقر، نقد النقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، مجلة عالم الفكر، ع03.
2. الزيات، أحمد حسن، مصطفى الرافعي مات الرجل العظيم، مجلة الرسالة، ع 254، 1938.
3. مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، جامعة الرباط، مج02، العدد12.

المذكرات:

1. مليكه صياد، النقد الأدبي بين العقاد والرافعي، مذكرة ماستر قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف _ المسيلة.

المواقع الإلكترونية:

1.سعد بن زيد آل محمود – العلماء والدعاة – مواقع مداد الإسلامي. *https://midad.com* اليوم 2024/04/20، الساعة: 15/15

المطبوعات البيداغوجية:

1. ابن طباطبا، عيار الشعر، من محاضرة الأستاذ ذبيح محمد _جامعة ابن خلدون تيارت.

فهرس المحتويات

فهـــــــرس المحتويـــــــات

البسملة:.....

شكر وعرفان:.....

مقدمة..... أ

مدخل: 04

المبحث الأول: الفكر النقدي عند الرافعي.....
04

المبحث الثاني: الوعي المحافظ عند الرافعي.....
07

الفصـــــــل الأول: الروافد النقدية عند الرافعى

تمهيد .....
19

المبحث الأول: المنجز النقدي عند الرافعي.....
19

المبحث الثاني: الموروث العربي النقدي والأدبي.....
20

المبحث الثالث: الذوق السليم والرؤيا الأصيلة في الفكر النقدي لدى الرافعي.....
28

المبحث الرابع: الموروث الإسلامي وتشكل الوعي الثقافي عند الرافعي .....
39

فهـــــــرس المحتويـــــــات

المبحث الخامس: النزعة الإنسانية في كتابات الرافعي.....

46

الفصل الثانى:قراءة تحليلية فى كتاب المساكين

مدخل تطبيقي: 51

خاتمة .....

79

الملحق.....

80

قائمة المصادر والمراجع: .....

84

الملـــــــــــخص

الملخص:

يندرج هذا البحث الموسوم بـ :" فلسفة الفقر عند الرافعي في كتابه المساكين"، للبحث في الخلفيات التي غذت مسار النقد لدى الرافعي حتى جعلت منه مفكرا مختلفا ينظر إلى ظاهرة الفقر من زاوية مختلفة. أخذت أبعادا إنسانية، يحلل فيها الظواهر الدينية، ليصل في أخر المطاف إلى تحليل الفقر على أنه غنى وأن الإنسان غني بقدر ما يتخلى عنه ويتركه وليس ما يكتسبه ويملكه، أي أن يصرف في الأشياء لا أن تتصرف فيه، وقد قدم أنموذجا تمثل في الشيخ علي الذي كانت معظم الأحداث والقصص التي رويت على لسانه، ويمكننا أن نقول أن نقده كان موضوعيا غير ذاتي وقد وقد نجح في الموافقة بين التعاطف مع المهمش في المجتمع وتزكيته لظاهرة الفقر التي لم يسبق أن تناولها غيره بهذا التحليل.

الكلمات المفتاحية: النقد، الفقر، الإنسانية.

Sammry :

This research, entitled "The Philosophy of Poverty in Rafei", is included in his book Poor. To look at the backgrounds that fueled Rifai's criticism so that he was a different thinker viewed poverty from a different angle that took on human dimensions, analyzed religious phenomena, and ultimately analyzed poverty as rich and that humans were as rich as they abandoned and left it, not what they gained and owned.

This is, to get rid of things, not to act, and to present a model that was in Sheikh Ali, who was most of the events and stories told in his mind, and we can say that his criticism was objective and subjective and succeeded in reconciling sympathy with the marginalized in society and his praise for the phenomenon of poverty that others never addressed in this analysis.

Keywords: criticism, poverty and humanity**.**